العبث والحرية

مؤيـّد الطـلال

١ ـ موقع الوجودية من شجرة الفلسفة المثالية الغربية

لم يكن انتصار الفلسفة المادية ممكنا في العصر الاغريقي السابق ، نتيجة لطبيعة الانتاج المادي السكوني في المرحلة العبودية اولا ، وعدم توفر معطيات علمية انذاك ثانيا . ولذلك فقد سادت الفلسفات المثالية ، وغرقت في حمى الاساطير الميثولوجية ، معبرة بذلك عن مصالح الطبقات المستغلة ، ومبررة واقع العلاقات الاجتماعية والانتاجية السائدة انذاك (علاقة العبد بسيده) . وهذا لا يعني طبعا ، خلو الفلسفة الاغريقة من بذور حية لافكار جنينية مادية ، سيكون لها تأثير بعيد المدى على الفسفات اللاحقة ، حتى يومنا هذا . وتلك البذور ، هي نتيجة تصعيد متسام لافكار واخلاق الطبقة الديمقراطية التقدمية اضافة الى الطبقات المحرومة ، طبقات اوسع قطاعات الشعب انذاك (طبقة العبيد الشغيلة على مستوى اعمال الخدمات العبودية والزراعية في وقت واحد) ، لان الافكار والمفاهيم هي بنت الواقع الموضوعي .

وقد كان صراع الفلسفات المادية والمثالية في العالم الاغريقي القديم ، بمثابة انعكاس لصراع الطبقات الاجتماعية . واستمر هذا الصراع في مرحلة جديدة من تطور القوى المنتجة للحياة المادية وعلاقة هذه القوى ببعضها في المرحلة التالية ، مرحلة الاقطاع ، وتحولت الاساطير الميثولوجية الى ايديولوجية لاهوتية صوفية لتبرير الاستغلال الاقطاعي ـ الكنسي لجمهرة الفلاحين : فكادت تنجح في اخضاع الفلسفة للدين ولتعاليم الكنيسة « التي جهدت الى تجاهل الطبيعة ، واعاقة تقدم العلوم ، وسحق الاثر الضئيل للمبادىء المادية باقامتها محاكم التفتيش الشهيرة . غير ان تطور القوى الانتاجية ، ومتطلبات الحياة اليومية وحاجات الناس الاساسية ، قد بعثت في شرايين العلوم المتصلبة دماء جديدة . وبذلك قوضت تجربة الحياة ، والنشاط العملي ، بعض القوانين المثالية والعقائد الكنسية(١)

ان البرجوازية الصاعدة ـ برجوازية ما قبل عام ١٨٤٨ الثائرة على المجتمع الاقطاعي في مرحلة افوله ـ بحاجة الى العلم الذي يساعدها في تسخير قوى الطبيعة ، حيث ان المعرفة الصحيحة للطبيعة وقوانين تطور المجتمع لا تقوم الا على علم مادي موضوعي . ومثل هذا العلم قد اخذ في الظهور : الفيزياء الميكانيكية ، التشريح الفيزيولوجي ، الكيمياء ... الخ اما وقد اختارت البرجوازية الصاعدة طريق العلم والتمرد على نمط وعلاقات الانتاج الاقطاعي ، فقد جعل منها انذاك طبقة تقدمية على حد تعبير ماركس . لقد استمدت البرجوازية تقدميتها انذاك ليس من محاربتها لذلك المجتمع المتعفن ومبادئه المتهرئة ، أو من وضع حجر الاساس للعلوم الطبيعية والصناعية حسب ، بل من دورها في **تكوين مفاهيم ومبادىء فلسفة مادية** ـ كوبرنيكوس ، برونو ، غاليلو ، بيكون ، هوبز ، ديكارات ، سبينوزا ، جون لوك ، ديدرو ، هولباخ ، وهيلفتيوس ... الخ ـ **اصبحت بمثابة النواة الاساسية للعقلانية العلمية والانسانية المعاصرة .**

---

(١) ي ـ كليانيش : نظرة ماركسية في تاريخ الفلسفة ـ ترجمة حنا عبود ـ دار الطليعة ١٩٧١ (ص ٤٥ ـ ٥٠)

وقد هيأت تلك المفاهيم والمبادىء ، ايديولوجيا ، الارضية للثورة البرجوازية الفرنسية ، ولعبت دورا كبيرا في النضال ضد المثالية ، وذلك من خلال تبريرها النظري للالحاد ودعوتها الى تطوير العلوم الفيزيقية والنضال من أجل انتشار النظريات والافكار الاشتراكية الطوباوية سان سيمون ، فورييه ، اوين) « وتحتل الفلسفة المثالية الالمانية مكانا مرموقا في تاريخ الفلسفة . فقد عكست ، بطريقتها الخاصة ، الطبيعة المتناقضة لتطور المانيا عشية الثورة البرجوازية . وكان « كانط وفيخته وشنلج وهيجل » اشهر ممثلي هذه المدرسة » . **لقد احدث هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) ثورة فكرية هائلة تضاهيها في القوة والتأثير الا الثورة الكوبرنيكوسية ، وصلت ذورتها الثورية العقلانية العلمية في الماركسية عبر اليسار الهيجلي (الراديكاليه الليبرالية والاجتماعية : شتراوس ، باور ، فيورباخ ، هس ... الخ) . ففي الوقت الذي بدأ الفكر الاوربي ينظر الى الهيجلية نظرة استخفاف وازدراء ، معتبرا اياها فطيسة نتنة ، اعلن ماركس في « راس المال » دفاعه عنها وافتخاره باستاذية هيجل له ، وبين أهميتها التاريخية** « باعتبارها اعظم نظرية للتطور في عمقها وغناها وشموليتها ، واثمن كنز في الفلسفة الالمانية . فقد درس هيجل قضايا المعرفة البشرية واشكال التفكير البشري ، وصاغ قوانين الديالكتيك الاساسية [وحدة التناقضات وصراعها ـ قانون التحولات ـ نفي النفي] واستنبط المراحل المتميزة في العمليات التاريخية وترابطها الداخلي ، ونقد الفلسفة اللاادرية ... الخ »(*) .

بيد ان ماركس لم يتقبل اويتبن البذرة الديالكتيكية الهيجلية في وضعها المثالي المقلوب ، بل عمل على تنميتها ودفعها الى اقصى ابعادها وامكاناتها الحيوية ، بعد ان اوقفها عند موضعها المادي الصحيح ، وذلك من أجل « اكتشاف اللب العقلاني داخل القشرة الصوفية ... فجميع الاسرار التي تقود الايدلوجيا الى الصوفية ، تجد حلها العقلاني في الممارسة الانسانية ، وفي فهم هذه الممارسة : لم يفعل الفلاسفة غير تفسير العالم ، اما المهم فهو تغييره » . بهذا النقد الموجه الى الفلسفة عامة والجناح اليساري من فلسفة العقل الهيجلية ، دفع ماركس بالفلسفة ، كمعرفة مستقلة ، الى الجحيم من أجل تحقيقها عمليا وتحويلها من تجريد ذهني الى واقع معاش حيث ان المعرفة تنتقل من الوعي الذهني الى البراكسيس العملي ، فحذور الضياع الديني والفلسفي قائمة في الانقسام بين الحياة العامة والحياة الخاصة للانسان ، بين الفرد والكائن النوعي ، ففي الدين يخلع الانسان الى خارجه كيانه الجوهري ، ويضيع نفسه في وهم عالم متعال على حد تعبير ماركس . وهذا الضياع لا يزول الا بزوال التناقضات الطبقية ، وتحرير البروليتاريا بجميع الطبقات ، من خلال تحريرها لذاتها .

ان التيار الذي يقع على يمين الهيجلية هو الذي اعاد صياغتها لتتلاءم والردة الرجعية ، ولتدافع عن تراث المثالية الميتافيزيقية والغيبيات الدينية ، وذلك في عصر تحول البرجوازية الصاعدة الى برجوازية استعمارية . فبعد انجاز البرجوازيةالصاعدة لمهامها ورسالتها التاريخية على الصعيد الداخلي (تحويل الطبيعة واستغلال الثروات الوطنية مع النزوع نحو ليبرالية تحررية ، وتوحيد الامارات والملكات الصغيرة في جمهوريات برجوازية شبه ديمقراطية على أسس قومية ، اضافة الى سيادة مفاهيم هذه الطبقة التي تحتاج الى العلم المادي ... الخ) ـ بدأت تتفسخ وتنوء بحمل رسالة ذات طابع رجعي تتناسب وحاجتها الى المزيد من الافقار الداخلي (المحلي) للبروليتاريا والمزيد من الاسواق الخارجية لتصريف بضائعها واكتشاف قارات جديدة غنية بمواردها الاولية الخام . ان هذه البرجوازية تتحول الى عصر جديد : العصر الاستعماري ، عصر المستويات الاجتماعية والقومية الخانقة .

وفلسفة هذه المرحلة تشكل « الانعكاس الدقيق للتسوية الاجتماعية على صعيد الفكر ، حيث تتخلى عن طموحها القديم في تقديم اجوبة عقلانية على مسائل الفكر البالغة الاهمية . فنظرية المعرفة تتحول في هذه المرحلة ، بعد ان استنفذت متطلباتها وموضوعاتها الداخلية ، الى فلسفة لا أدرية بلهاء تقوم بوظيفة «حارس حدود» وصمام أمان للنظام القائم . ان الفلسفة السائدة في هذه العصر هي فلسفة اساتذة ، على حد تعبير لوكاتش ، بعد ان اصبحت بنفسها « علما متخصصا » يقوم على ملامح كانتيه جديدة واسس وضعيه ، أو نزعات لتجديد المادية الميكانيكية القديمة (مالشوت ـ باشزر) مع روح تشاؤمية صوفية ، (شوبنهاور ـ نيتشه ـ كيير كيفارد) في وقت واحد(*) .

ولا زال التخطيط الذي رسمه لوكاتش في عام ١٩٤٧ لازمة الفلسفة البرجوازية ، وحقيقة الوجودية ، محتفظا بقوته النقدية وعمقه الفكري لحد الان فالبرجوازية في طورها الاستعماري الجديد وحاجتها الماسة لاسواق النهب الامبريالي ، مقابل تصاعد المد الاشتراكي والتقدمي في العالم ، سعت « في محاولات لا تستطيع ان تتحقق الا على حساب خداع دوغمائي الى **رسم طريق ثالث للفلسفة** ، لتتمكن نظرية المعرفة البرجوازية من تجاوز المادية والمثالية في آن واحد » .

(*) يتضح دور هيجل التقدمي في كتاب انجلز حول نهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية ، وفي دفاتر لينين عن الفلسفة والديالكتيك ايضا . (راجع المصدر المذكور آنفا ، ومؤلفات اوغست كورنو حول حياة ماركس وانجلز واعمالهما الفكرية) .

(*) جورج لوكاتش : « ماركسية أم وجودية ؟ » ترجمة جورج طرابيشي ـ دار اليقظة العربية في دمشق .

وفي الحقيقة ليست المسألة الا محاولات لتجديد المثالية الفلسفية ، ببعث دماء جديدة في عروقها المتشنجة لتكون سلاحا في المعركة العقائدية المعلنة على الماركسية بعد الباسها لباس الموضوعية الكاذبة ، وتزينها باساطير جديدة تخفي مذهب « وحدوية الذات القديم » وتستر افلاس المثالية الموضوعية على صعيد التطور التاريخي . غير ان هذا الطريق قد وجد في « لينين » ، خصما عنيدا حين طرح القضية بشكلها النهائي [اولويةالوجود ام الوعي ؟ وهل يوجد العالم الموضوعي ــ المادي خارج وعينا الذاتي ؟! ...] في كتابه « المذهب المادي والنقد التجريبي » .

والفكر البرجوازي من خلال ازمته في البحث عن طريق ثالث ، يبدو انه قد عثر على صوفيته الخاصة ليس في علم النفس الكلاسيكي حسب ــ كما اعتقد جورج بولبترز ــ بل وفي الوجودية أيضا . فالوجودية ، الملحدة والمؤمنة على حد سواء ، تعكس ايديولوجيا ، السديم الروحي والاخلاقي لتناقضات العقل البرجوازي الراهن

« حيث ان الوعي الوجودي ، المجرد من كل منظور عيني وحقيقي ، يقود الى العدمية الفلسفية ، والى خلق الاساطير ، التي تعود الى بقايا لا هوتية لم يعرف هذا الوعي السبيل الى قهرها . فالوجودية اذن تحمل طابع العدمية التلقائية ، شأنها شأن كل عقيدة برجوازية حديثة لا تستطيع ان تجتاز هذه الهوة الا بفضل مذهب انتقائي معين ، على حد تعبير « لوكاتش » . ولم يكن العقل الماركسي هو الوحيد الذي استطاع ان يلحظ ويكشف تلك البقايا اللاهوتية والصوفية فحسب ؛ بل ان أحد مفكري التحليلية المنطقية (الفريد جولز آير) قد أشار الى كثرة التجاء الفيلسوف الوجودي الى الميتافيزيقيا الغامضة لتبرير مفاهيمه دون الالتفات الى اساسها المنطقي [راجع مجلة ــ الاداب البيروتية ص ٣٦ ــ العدد الخامس ــ ايار ١٩٦٥] .

تنتقي فلسفة المرحلةالامبريالية «المثالية الموضوعية» من نظرية المعرفة للمرحلة السابقة ، وتطرح جانبا مبدأ اللاادرية وحتى منهج الجدل الهيجلي ، لتحل محله تصورات ومناهج اكثر سحرية واسطورية ، مثل الحدس اللاعقلي (دلثي ــ هوسرل ــ برغسون) باعتباره منهجا فلسفيا يتجاوز المناهج المثالية والمادية ويعتمد التأمل الخالص والمحايد للواقع ، مع تعليق العالم المدروس بين قوسين (الابوخية في المعرفة الفينومولوجية) ... اضافة الى تعليق القضايا الانسانية والحقائق الموضوعية باعتبارها مسائل « نسبية » . (ماخ ــ ايفانوروس ...) واشاعه الفوضى العلمية في ميدان الفيزياء الحديثة ، واعلان نهاية المادة والحتمية العلمية وبزوغ عصر الحرية الذاتية حسب مفهوم « هيزنبرج » في الذرة : عدم امكانية تحديد موضع وسرعة الالكترون في وقت واحد ... الخ غير ان ذلك لا يعني نهاية العلم وحقائقه ، بل يعني الانتقال من النظرة الميكانيكية (ارسطو ــ نيوتن ــ لابلاس) الى النظرة الديناميكية الدايلكتيكية .

مادام العقل قد اهتز عرشه باهتزاز مواقع الطبقة البرجوازية على صعيدي العلم والعمل ، ودخول هذه الطبقة مرحلتها الاخيرة وازمتها العامة ووقوفها على اعتاب حرب كونية شرسة تصفي حساباتها مع العنيمة لتجد مخرجا لازمتها .. ، فأن الوجودية تضطلع بهذا الدور على الصعيد الفلسفي المتقدم ، فيستعير « كارل ياسبرز » من نيتشه قدريته العمياء ومن « هيدجر » مفهوم « الكينونه من اجل الموت » ليبشر ويعظ بوجود منطو على ذاته ، معزول عن كل حياة عامة ، يقوم توازنه على تشاؤم كلي ازاء العالم الخارجي (شوبنهاور) ... والهدف الحقيقي لهذه النزعة هو « منع الاستياء الذي ولدته الازمة ان ينقلب ضد اسس المجتمع الرأسمالي ، والعمل بحيث لا تقدر الازمة على دفع الفئة المثقفة الى التمرد ضد مجتمع الامبريالية ص ٣١ لوكاتش » .

فما دام العلم بالنسبة الى فلسفة الامبريالية عاجزا عن تقديم رؤية اجمالية شمولية ، وان العقل قد توقف او وصل الى حدود ضيقة ومنيعة ، فانها تقدم الينا تصورا اكثر كزموبولوتيه ــ وهذا التصور هو بمثابة ارهاصات اولية للنزعة الفاشية نحو دولة عالمية ، عنصرية هرمية ، تحل تناقضات البرجوارية الاوربية ــ ومنظورا ابعد من العقل المعروف ومناهجه البالية يعتمد الحدس اللاعقلي الذي يمكن ان يستشف الواقع العلوي او « ما فوق العقلي » ، ليكون مصدر كل معرفة حقيقية (كذا !!) بيد ان هذه المعرفة مجردة من كل عنصر اجتماعي ومن ثم واقعي يمكن ان يعارض وعي الفرد المعزول «العبقري!!» لان العالم الواقعي وقضاياه اليومية ، حسب هذا المنهج ، ستكون معلقة بين قوسين(*) وبذلك تستبين وتتوضح الجذور الدينية ــ الصوفية لهذا المنهج الذاتي الذي يذكرنا ايضا بافلاطون وعالميه الشهيرين . عالم الحقيقة والوهم ، عالم المثل !!



هيجل

(*) للتأكد من صحة معطيات هذا المنهج ونتائجه يمكن ان يعود القارىء الى مراجعة اي كتاب في هذا الشأن وعلى الاخص كتاب هوسرل «تأملات ديكارتية او المدخل الى الفينومولوجيا » وكتاب سارتر « الوجود والعدم »

وهذا الطابع الاسطوري لا يقف عند حدود نيتشه ومغامراته الذهنية والروحية فحسب ، بل يمتد ليغطي الوجه المأساوي من الفلسفة الوجودية المعاصرة برمتها . فاذا كانت فكرة الابدية (العود الابدي) تشترك في اكثر من جانب مع فكرة « التكرار » الكيركيجوردية ، كما لاحظ جوليڤيه ، فانها تترك اثرها الاسطوري واللاعقلاني على مفاهيم بوجودية اكثر حداثة مثل مفهوم ياسبرز حول « اللحظة السرمدية » ومفهوم هيدجر حول « الكينونة من اجل الموت » ومفهوم سارتر حول عزلة الانسان الابدية في عالم مفطى وغريب (كثيف ولزج واحتمالي ... الخ ايضا) ، وصبوة هذا الانسان لان يكون الله : « ان الانسان هو الموجود الذي يشترع ان يكون الله !! »(*) ، وولع كامو في الفكر الميثولوجي والعدمي وخاصة اسطورة « سيزيف » ... الخ . **ان النتيجة التي آل اليها موت الاله المسيحي المزعوم ، والحقائق الاخلاقية والتشريعية التي تبنى على ذلك الزعم او ما يسميه نيتشه باخلاق « العبيد » ، اقتضت منه تصورا أسطوريا جديدا للحياة والخلق والانسان ، تصورا بعيدا عن المنطق والواقع العلمي السائد في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، تصورا يتلاءم وردة الفعل ضد تنامي الروح العلمية الموضوعية التي بشرت بها طلائع الطبقة الصاعدة (البروليتاريا) ، ويعبر في الوقت عينه عن أزمة الفلسفة المثالية في مرحلتها الخانقة « المرحلة الامبريالية »** . ولم يترك ذلك الطابع الاسطوري اثره العدمي والسلبي على تفكير نيتشه ورؤيته الكونية الزائفة فقط بل ترك طابعه المفجع على قواه العقلية ايضا . وبهذا نستطيع ان نعتبر فلسفة نيتشه من اكثر الفلسفات الذاتية تطرفا ، وهذا ما يفسر ايضا عبارته الشهيرة « لقد كتبت كتبي بدمي !! »

وقد لاحظ (هنري لفيفر) في معرض نقده للفكر الوجودي بأن الانسان ليس فريسة للقوى الكونية مباشرة كما اعتقد نيتشه ، اكثر مما هو منحصر في ذاته انحصارا انعزاليا . ولذا فأن التهيج العصبي ـ كما هو حاصل في حالة نيتشه على وجه الخصوص ـ يؤدي بسهولة الى **حلول مزيفة ، ميتافيزيقية ، رمزية وخرافية** . حيث ان التوسط التاريخي والاجتماعي بين الفرد « العصري » وبين « الكوني » لا يمكن الفاءه بمرسوم شعري فلسفي . واذا خرج احدهم من « الانسان النظري » أو من الاشكال الاسطورية ، ولاسيما من اطار الشكل المسيحي واخلاقيتهما « العبودية » على حد تعبير « نيتشه » ذاته ، فأن خروجه لا يمكن أن يتم الا بمعرفة الخبرة الاجتماعية وسبل تنميتها وتطويرها من اجل تغير تلك الاطر الاسطورية والعبودية ، وتحويل الواقع تحويلا ثوريا .

فالحاد نيتشه اذن ، هو الاخر اسطوري ، لان وعي الواقع الايماني كان وعيا وهميا وزائفا . لذا جاء نقد ذلك الواقع جزءا من نقد السماء بدل الارض ، نقد للنتيجة الظاهرة بدل العلة الجوهرية ، نقد لشكل الاسطورة دون محتواها . وكما لاحظ (جوليڤيه) فأن فلسفة نيتشه كلها ، من البداية الى النهاية ، تقوم مرتبطة بمشكله الاله . فالاله هو الشخصية الرئيسة ، أو هو بحق الشخصية الوحيدة في قصة نيشه الدرامية ، كما ان صليب المسيح يسيطر في جلاء على افق نيتشه كله ، وذلك على نحو يتحول فيه الانكار بما ينطوي عليه من عنف الى توكيد ، وتكون فيه « لا » صور من « نعم » .. وقد استخلص « ياسبرز » النتائج من هذا الالحاد الكاذب ، فاعتبر كفاح نيتشه ضد المسيحية ما هو الا نتيجة لميول مسيحية ـ ونيتشه على علم بذلك ـ تجلت لديه منذ البداية على انها البقية الباقية من فقدانه التام للايمان بالمعتقدات المسيحية اي بالشكل الايماني(*) .

ولذا فاننا نستطيع ان نبني على شهادة (يسبرز) اتهامه لنيتشه بالاصلاحية العتيقة ، واعادته لصياغات اسطورية . اي جهده في ازالة التناقض بين شكل الاسطورة ومحتواها ، ليس عن طريق الممارسة العملية التي تسعى الى الكشف عن « اللب العقلاني داخل القشرة الصوفية » وليس عن طريق تجاوز معطيات الواقع الذي تشكلت وترعرعت من خلاله الرؤية الاسطورية ـ بل عن طريق التأمل الخالص والنباح النظري المتعالي ضد سبل واشكال التعبير الميثولوجي فقط ، والنتائج القريبة التي تفضي اليها تلك السبل والاشكال . ولذا فقد جاءت رؤية نيتشه الكونية قريبة كل القرب من التصور المسيحي في جوهره العام ، وخاصة جانبه المأساوي (الخطيئه الاصلية) وقريبة من الاستكانة الاسطورية الموعودة : البعث والنشور المسيحي مقابل فكرة العود الابدي النيتشوية !!

هذا الاعراض عن العقل هو السبيل الوحيد امام الفلسفة البرجوازية التي لا تستطيع الاعتراف بافلاسها وازمتها الحادة ، والسبيل ايضا لاخفاء النتائج الاجتماعية والتقدمية لمكاسب العلم وجعلها مبهمة ونظرية في آن معا . وهذا التيار اللاعقلي على صعيد الفلسفة ، هو التمهيد لسيادة المناخ الروحي لمثقفي البرجوازية : أي الوجودية ، الفلسفة التي ستجهز على البقية الباقية من العقل والعلم والامل في بناء عالم افضل ، لتحل محله الذات الرافضة المتوحدة القلقة واليائسة في خضم وجود منطو على ذاته (ياسبرز) ، كثيف ولزج (سارتر) ، أخرس وعبثي لا جدوى فيه من الفعل الانساني أزاء صمت العالم ولا عقلانيته (كامو) .. الى آخر هذه القائمة من التهويمات الفلسفية اللاعقلانية .

(*) ج ـ ب ـ سارتر « الوجود والعدم ص ٨٩٣ » ترجمة عبدالرحمن بدوي ـ دار الاداب الطبعة الاولى ١٩٦٦

(*) ريجيس جوليفيه : المذاهب الوجودية من كير كيجورد الي جان بول سارتر ص ٦٣ ترجمة فؤاد كامل ـ الدار المصرية للتأليف الترجمة .

بالطبع ، فأن هذا التيار من تيارات الفكر البرجوازي الراهن ، لم يستطع ان يحل القضايا والاسئلة الملحة التي طرحها ولازال يطرحها الفكر البشري (علاقة الفكر بالواقع واولوية ايهما ، مثلا) . بل زادتها غموضا « لتظهر تراجعا واضحا من نواح عديدة حتى بالنسبة الى المرحلة الكلاسيكية ، لانها حين تجهد لحل هذه القضايا تلجأ الى طرد المثالية من الباب لتعيد ارجاعها من النافذة حيث ان الضرورة التاريخية للطريق الثالث المزعوم اثناء المرحلة الامبريالية ، هي هجر منهج المثالية ، مع الحفاظ على نتائجها واسسها ـ لوكاتش ص ٥٥ » .

ان تدمير العقل ، على الصعيد الفلسفي ، مستهدف منه أمران : الاول تحويل الواقع الموضوعي الى معطى كثيف ولاعقلاني ليعلن هذا العقل عجزه عن سبرغوره ، وبالتالي التصريح بزيف ولا جدوى أي فلسفة عقلانية تجهد الى مثل هذه المعرفة أو السيطرة . والمقصود بالطبع من كل هذا ، هو محاربة الماركسية . اما الامر الثاني فيقوم على اهمال الشروط الاجتماعية وقضايا الحياة الانسانية ، ومن ثم اعتبارها مجرد معطيات ثانوية ، من اجل ان يبقى العالم كما هو على صعيد الممارسة العملية وعدم الجدوى او القدرة من تغييره ... انه النضال ضد الاشتراكية !!

* * *

ولكن سارتر يحدد موضعا آخر للوجودية من شجرة الفكر المثالي الغربي في اجابته على دراسة « لوكاتش » واسئلة المجلة البولونية عام ١٩٥٧ بعنوان « مسألة منهج »(*) ، والتي أصبحت بمثابة المدخل لكتابة « نقد العقل الجدلي » . لقد ابدى سارتر في تلك الاجابة تنازلات وتغييرات على مواقعه ومواقفه ، بيد انه لازال ينهل من الفكر المثالي للفلاسفة الكلاسيك الكبار

يعتبر سارتر الوجوية مجرد عقيدة ونظام طفيلي يعيش على هامش العلم ، بالرغم من ان كيير كيفارد ، الاب الروحي للوجودية ، ينقض هذا العلم الموضوعي : « ان الانسان الموجود لا يمكن ان يمثل بنظام افكار .. والالم الانساني يفلت من العلم . بالطبع ، انه الدين الذي يريد « كيير كيفارد » الدفاع عنه . انه يضع بين الانسان والاله ، مسافة لامتناهية . وعلى هذا فانه مقود الى المطالبة بالذاتية الخالصة ، المتفردة ، ضد شمول الماهية الموضوعي عند (هيجل) .

وبالايمان ضد البداهة العلمية ، فالحياة الذاتية ، بقدر ما تكون معاشة ، لا يمكن ان تكون موضع علم . انها تفلت ، من حيث المبدأ ، من المعرفة . وهذه الذاتية هي ما اطلق عليه « كيير كيفارد » اسم [الوجود] » . يعترف سارتر اذن بأن الوجود الوجودي ليس الا الحس الداخلي ، الشعور الذاتي المحض ، في ان الم الانسان وتفرده لا يستطيع العلم تجاوزه . ولذا فهو بحاجة الى صبوة ذاتية نحو المطلق اللامتناهي ، نحو الله ... ويعتبر سارتر ان هذا المذهب الذاتي ، الديني والمثالي ، يعد تقدما على هيجل نحو المذهب الواقعي « لانه يلح قبل كل شي على ان هناك واقعا معينا يستحيل على الفكر ارجاعه ، ويلح على اولوية هذا الواقع ص ٢١ » . **هل ياترى هذه عقيدة تعيش على هامش العلم (أي علم ؟!) أم على هامش لاادرية وقدرية بلهاء ؟!**

غير ان سارتر يعتقد ان ثمة وجودية اخرى قد تطورت على هامش الماركسية لا ضدها . حيث كانت الماركسية باعتبارها فلسفة اصبحت عالما معاشا بواسطة « البروليتاريا » ، تنتزع الوسط الطلابي من الثقافة المتوفاة لبرجوازية تعيش عيشة الكفاف على ماضيها . ويتساءل سارتر : **لِمَ احتفظت الوجودية اذن باستقلالها الذاتي ؟ لِمَ لَمْ تنحل في الماركسية ؟!** ويجيب سارتر على سؤاله بتناقض غريب « اننا كنا مقتنعين ، في الوقت نفسه بأن المادية التاريخية تقدم التفسير الصحيح الوحيد للتاريخ ، وبأن الوجودية تظل الاقتراب العيني الوحيد من الواقع !! ص ٣٥ » . وهذا التناقض لا يخفى على على سارتر نفسه ، غير انه يبرره بوجود مفارقة موضوعية : ففي الوقت الذي انتزعته فيه الماركسية ، وزمرة الطلاب البرجوازيين الصغار المثقفين ، من طبقته وبلبلت افكاره تركته فجأة اثناء التنفيذ . فهي لم تكن تشبع حاجاته الى الفهم ، وباتت لا تملك جديدا تعلمه اياه ، لانها كانت قد توقفت على حد تعبيره .

ثم يكرر سارتر كليشهات وأسباب التوقف المعروفة: انفصال النظرية عن التطبيق وتحول النظرية الى افكار فيتشية مقدسة « الى علم خالص ص ٣٥ » ، تخطيط البيروقراطية الستالينية التي لا تريد الاعتراف باخطائها متحولة الى عنف موجه ومنظم .. الخ وبعد ان ينتقد سارتر موقف التدخل السوفياتي في المجر ، يصل الى ان الماركسية باتت لا تعرف شيئا « فمفاهيمها مفروضة ومملاة املاء ، ولم يعد هدفها ان تكتسب معلومات بل ان تجعل من نفسها قبليا ، علما مطلقا . وازاء هذا الجهل المزدوج، استطاعت الوجودية ان تولد من جديد وان تصمد لانها تؤكد واقع البشر ـ كما كان كيير كيفارد يؤكد واقعه الذاتي الخاص ضد هيجل ـ وانها على عكس الماركسية التي حولت الانسان الواقعي الى مجرد فكرة ، تبحث عن الانسان في كل مكان يوجد فيه بالرغم من انه يفلت من المعرفة مؤقتا ، لان المفاهيم الوحيدة التي تملكها لفهمه ماخوذة عن مثالية اليمين ، او عن مثالية اليسار ص ٤٧ » . **مثالية اليسار تلتقي اذن ، حسب تعبير ومفهوم سارتر هذا ، مع مثالية اليمين في تضييع الانسان الواقعي وابعاده عن المعرفة والفهم . والوجودية تاتي لتجاوز كلتا المثاليتين لتخلق طريقا جديدا ، ثالثا ، هو الذي يستطيع ان يحدد موقع الانسان ويعرفه (كذا !! ..)**

(*) ترجمة جورج طابيشي بعنوان « الماركسية والوجودية » دار اليقظة العربية في دمشق .

لقد بان الموقع الحقيقي للوجودية اذن ، بعد سلسلة من التحليلات والاستنتاجات المتناقضة . فكيف يمكن ان تتوقف فلسفة « تقدم التفسير الصحيح والوحيد للتاريخ » وتبين لا تعرف شيئا وتصبح مفاهيمها « المفروضة والمملاة املاء » علما مطلقا يسعى الى «تضييع الانسان الواقعي وابعاده عن المعرفة والفهم » ؟؟! وكيف تستطيع الوجودية ان تؤكد واقع البشر « الذي يفلت من المعرفة مؤقتا » بمفاهيم ماخوذة عن مثالية اليسار واليمين في وقت واحد !؟

بعد هذا الاتهام الخطير للماركسية والقطيعة معها يطلب سارتر ودها ، في رياء مفضوح ، كاتبا « لا بد لنا من ان نتفاهم : ان هذا التصلب لا يعني هرما طبيعيا » . انه ناتج عن ظرف عالمي ذي طابع خاص . فالماركسية بعيدة عن ان تكون قد نضب معينها ... انها تبقى فلسفة عصرنا ، لان الظروف التي انجبتها لم تتجاوز بعد ص ٤٩ » . ما الذي تبغيه الوجودية اذن ، التي هي انطربولوجيا (علم الوجود الانساني) بنبوية وتاريخية(*) تسعى الى دراسة العمليات المختلفة للصيرورة ـ الموضوع والتي تعلن الاتفاق العميق مع الفلسفة الماركسية **وتحافظ مؤقتا** على استقلال العقيدة الوجودية في آن معا !؟ ص٦٤ .

يقرر سارتر ان هناك **صدعا** خطيرا في الماركسية بسبب استبعادها السائل (الانسان) من تنقيبها ، وجعلها من المسؤول (الشيء) موضوع علم مطلق !! فالوجودية اذن تسعى الى **اعادة الارتباط المفقود بين السائل والمسؤول** لتعيد ادخال تفرد المغامرة الانسانية في قلب العالم ذاته ، وفي شمول المفاهيم . واستبعاد الانسان من العلم الماركسي ، كما يرى سارتر ، هو الذي سبب نهضة الفكر الوجودي خارج التوحيد الكلي التاريخي للعلم . فالماركسية **ستنحط** اذن الى « انطربولوجيا لا انسانية اذا لم تدمج بها الانسان نفسه كأساس لها ص ٢٧٠ » . وعلى هذا يشير سارتر الى ان العلم الماركسي حين يتناول الانسان المستلب لا يجب ان يكتفي بوصف تطور الراسمال او نظام الاستعمار ، بل ينبغي للسائل ان يفهم كيف يوجد استلابه ، وكيف يتجاوزه ؟ فالوجودية اذن،حسب ما يرى سارتر ، تعيش على **سلبية الماركسيين** وفقر دم مذهبهم ، الذي يؤسس علمه على ميتافيزيقيا دوغمائيه (جدل الطبيعة مثلا ـ كذا !!) بدلا من ان يقيمه على تفهم الانسان الحي . وستتابع الوجودية ابحاثها الى اليوم الذي سيتخذ فيه البحث الماركسي البعد الانساني (اي المشروع الوجودي) اساسا للعلم الانطربولوجي ، وستكف عن الحياة لتذوب في حركة الفلسفة التوحيدية الكلية ... وهكذا يعتمد سارتر ، في تخبطاته وتناقضاته الفكرية السالفة ، على تشويه متعمد للفلسفة والحركة الماركسية .

فأولا : ان التصلب المزعوم للماركسية لا يخول الماركسي المدعي ، كسارتر مثلا ، البحث عن حل لهذا التصلب **خارج اطار الفلسفة الماركسية ذاتها .**

وثانيا : قد تجاهل سارتر حقيقة موضوعية لا سبيل لانكارها « فمن لا يعمل لا يخطيء » الذي سيصيبه هوس العظمة ، وجنون النزاهة والنقاء ، في صورة عصمة دينية زائفة . فالتصحيح الذي ينشده سارتر،والدماء الجديدة التي يبتغيها ، لا تتسرب الى الماركسية **الا من خلال النضال الدائب بين صفوف البروليتاريا ، طليعة الطبقات المستغلة ومن خلال ربط النظرية بالممارسة العملية في وحدة جدلية مناضلة .**

ثالثا : ان سارتر يكذب على الحقيقة والتاريخ حين يعتقد ان العلم الماركسي يستعبد الانسان السائل . فالماركسية ما جاءت الا لتحرير الانسان من جميع ضياعاته الفكرية والروحية والاقتصادية على حد سواء ، حيث ان الانسان حسب تعبير ماركس « هو اثمن راس مال » . والماركسية هي الفلسفة الوحيدة التي اشارت الى **استلاب الانسان ، ووسائل تجاوز هذا الاستلاب بطرق علمية صحيحة .**

رابعا : ان الوجودية لا تعيش على سلبية الماركسيين وفقر دم مذهبهم بل على **تناقضات الفكر البرجوازي في مرحلته الامبريالية .** والماركسية لن تذيب في حركتها الشمولية عقيدة انتقائية استعمارية ترفض جدل الطبيعة وتسم الماركسية العلمية بالميتافيزيقية الدوغمائية ، وتجهد لاظهار ماركس كوجودي قد اضاع اصالته وفلسفة شبابه العميقة الخصبة نتيجة تأثير انجلز التدميري . ان سارتر يدعو الى نظرية جديدة للوعي والمعرفة « مكروفيزيائية » ، حيث ان النظرية المادية هي بمثابة نقطة الضعف الرئيسة من الفلسفة الماركسية انه حين ينكر ، في كتابه « المادية والثورة » ، ان يكون العقل ومن ثم التفكير ذا طابع مادي ، يتجاهل حقيقة المقولة الماركسية حول العقل باعتباره مادة راقية التنظيم وان الفكر ليس مادة بحد ذاته ، بل هو نتيجة لفعاليات فيزيولوجية في اعلى مراحل تلك المادة الراقية والعالية التنظيم . فاذا لم يكن العقل مادة ، والتفكير حصيلة فعاليات تلك المادة العالية التطور والتنظيم ، والوعي هو الانعكاس الموضوعي لوقائع العالم الخارجي المادي ، **فما هو اذن ؟؟ هل هو الصورة المشوهة الرديئة لعالم المثل الافلاطوني ام الهيولي المحايدة (راسل) ، أم تجلي الله ونفحته السماوية ؟!**

ان سارتر لا يستطيع الاجابة عن هذا السؤال لان هذه الاجابة ستفضح مثاليته وميتافيزيقيته الفلسفية ، وتحدد

(*) تتجسد وتتأكد ، في هذه العبارة ، الروح الانتقائية التعسفية للمذهب الوجودي حيث يجهد سارتر للمزاوجة بين انطلوجية « كير كيغارد » التي تؤكد على وحدودية الذات وعزلتها او صبوتها نحو اللامتناهي وتجاوزها لمعطيات العلم وشمول الماهية الموضوعي ... وبين تاريخية خالية من المجموع الانساني (!!) ومنهج بنيوي حديث يدرس بناء وتركيب « الشيء ـ موضوع الدراسة » في حالته السكونية وبمعزل عن علاقاته وتناقضاته ، توسطاته ، اتجاهاته ..

موقعه من المسألة الاساسية التي قسمت الفكر والمفكرين الى مدرستين متناقضتين ، ولذا فهو يكتفي بالشكيك في صحة المفهوم الماركسي ، ويذكرنا بحقيقة اقرتها الماركسية - بل هي جوهر الديالكتيك الماركسي - تفيد بأن الانعكاس لا يمكن ان يكون بصورة ميكانيكية ، لان العقل البشري ليس صفحة بيضاء (هيوم ، لوك) بل فعالية راقية ومفيرة ... ان هذا لتحصيل حاصل !!



البير كامو

خامسا : ان سارتر حين يسخر ، في نقده العقل الجدلي ومفهوم الانعكاس من نظرة ماركس الموضوعية للطبيعة وما يقابلها (نظرية الانعكاس اللينيني القريب من الضبط الموضوعي) ، معتبرا ان الموقفين متناقضان من جهة ويحذفان الذاتية من جهة اخرى ، لان تصور ماركس « نظري خالص » وتصور لينين « مجرد سلبية » معتبرا اياهما مضادين للجدل ، ويجدان جذورهما اللاعقلانية واللاانسانية في مفهوم « انجلز » لديالكتيك الطبيعة (... !!) - **فانه يعمل على اساءة فهم متعمد للماركسية واعتبارها مجرد تطوير وتجديد لفلسفتي « لوك وهيوم » في مفهومي المعرفة الحسية الساذجة والصفحة البيضاء، متغافلا عن العلاقة الجدلية الصميمة بين العقل والطبيعة، بين العاكس والمعكوس ، ودور كل منهما في التأثير على الاخر .** وبذلك يقطع كل الجسور والسبل التي يمكن ان تؤدي به الى التفاهم المزعوم مع الماركسية !!

سادسا : ان هذا البعد الانساني ، الذي يشير اليه سارتر ناصحا الماركسية بأن يكون اساسا لعلمها الانطربولوجي ، هو عودة الى ما قبل الماركسية . عودة الى المثالية الذاتية ، كما هي عند المفكر الالماني « فيخته » . وهو بذلك قد ناقض نفسه حين قال ، في بداية كتابه المذكور ، ان اي تخط مزعوم للماركسية ما هو الا عودة الى فلسفة سابقة على الماركسية . **فالفلسفة الماركسية لا تستبعد الذات الانسانية والنشاط الانساني ، بل تبعد النعوة الذاتية الفردية المريضة التي تناقض العمل الثوري الجماعي ، وتغلق الانسان في عزلة حساسة مرضية ، كما هي حال اغلب المفكرين الوجوديين** ابتداء من دستويفسكي وكيير كيفارد وانتهاء بكامو مع المرور بكل من هيدجر وياسبرز ونيقولا برديائيف وجبزيل مارسيل

... ان البشر ، ومن خلال النشاط الكلي والجماعي ، يصنعون تاريخهم بانفسهم ضمن حدود وضع معطى . وقد ادرك سارتر هذه الحقيقة العينية ، ولمسها لمس اليد، وغير الكثير من مواقعه ومواقفه المذكورة آنفا .

٢ - العبث أم الحرية ؟!

يبدو جليا ان كامو Albert Camus (١٩١٣ - ١٩٦٠) يعتبر الممثل والمجسد الحقيقي لفلسفة العبث ، حتى انها اقترنت باسمه ، اعتبر موته المباغت في حادث سيارة ، اعظم عبث عاشه ومنعه من انجاز رسالته (سارتر) ولكي ندرس مسألة العبث في فلسفة كامو(*) علينا ان نفرق أولا بين « حس العبث » وبين « مفهومه » . وكامو نفسه يدعونا الى هذا التمييز حيث يقول : ان حس **العبث ليس هو بالضرورة مفهوم العبث . انه يؤسس هذا** كل شيء ولكنه لا يتلخص فيه . **وعلى هذا فان حس العبث ينجم عن كل ما لا معنى له : العالم هو ، اذن ، عبث . وانا نفسي كذلك .** ولكن ما هو هذا اللامعنى ، وكيف نحسه ؟ ان كامو يوضح ذلك قائلا « حس هو في أصل التفكير والعمل . انفعال مؤكد ، وان كان مشوشا وغير محدد ، حاضر وان كان بعيدا . ومنشؤه غير متوقع : فأن صدمة **هذا الانفعال تهزك عند منعطف شارع . انه حس مفاجيء وبائس ، ذلك لانه ليس هناك ما يهيئه ، ولان الانفعال** يظهر في اتفه مظاهر اليومي المعتاد ، ورؤية الالي التي نحياها كل يوم : يقظة ، ترام ، اربع ساعات عمل ، طعام ، ترام ، نوم ، اثنين ، ثلاثاء ، اربعاء .... دائما وابدا نفس الايقاع الالي الرتيب الذي تسير عليه حياتنا اليومية، والذي طالما اعتبرناه طريقا مريحا - على حد تعبير كامو - **والذي يقابله ايقاع آلي اخر ينتظم افعالنا وسلوكنا :** فليس اللامعنى من حولنا فحسب ولكنه كذلك كامن في نفوسنا ، فالاحساس بالضيق وعدم الارتياح الذي تثيره فينا « لا انسانية الانسان » قد تسببه ملاحظة عادية نراها كل يوم ولكننا لا نلتفت اليها الا على حين غرة : « انسان يتحدث في التلفون وراء حائط زجاجي نحن لا نسمعه ولكن نرى حركاته وايماءاته الخالية من كل معني ، ونسأل انفسنا « لماذا يعيش ؟! » .... وهكذا نحيا **حياتنا المتعبة ولا نلتفت الى متاعبها ونعيش أيامنا الرتيبة** ولا ندهش لما فيها من رتابة ، حتى يأتي يوم يستيقظ فيه الاحساس بالمحال فجأة ، وعلى غير انتظار ، ليوقظ فينا الاحساس بالقرف والملال . بهذا القرف تنتهي الحياة

(*) لكي ندرس مسألة العبث في فلسفة كامو دراسة نقدية ينبغي علينا اولا توضيح هذه الفلسفة بالاسلوب التقريري الحيادي وكما جاءت في كتب كامو الفلسفية خاصة (اسطورة سيزيف ١٩٤٣ - الانسان المتمرد ١٩٥١) وما كتبه عنه كل من « روبير دولوبيه - الفصل الاول فقط » والدكتور عبدالغفار مكاوي - الفصل الاول ايضا بعنوان « المحال » ص ٣٣ من كتابه البير كامي : محاولة لدراسة فكره الفلسفي - دار المعارف بمصر (١٩٦٤) .

، وتبدأ حياة الوعي والوجدان . انه يوقظ في الوقت حركة الوعي بالسؤال الخالد ((**لماذا ؟**)) . قد يتبع ذلك اليقظة النهائية ، التي لا نوم بعدها ، قبل ان تأتي فكرة الموت التي لا يستطيع الانسان ان يتعود عليها . (د . مكاوي ص ٣٥ — ٣٦) .

وعلى هذا الاساس فان الشعور والاحساس بالعبث هو الرفض ، في عناد واصرار ، بأن يكون للعالم معنى او غاية معينة . انه الشعور بعدم المعنى العميق للاشياء . وتكون ذروة الاحساس بالعبث هي نفسها الذروة في الاحساس بالموت ، او هو « انعدام كل شيء بعد موتي . انه امكانية عدم وجودي مع بقاء العالم ، غير المبالي ، على حاله . أي وجود العالم بعدي بدون وجودي !! » . انه الاحساس الفردي الخالص بواقعة الموت كما هو مبين في مفهوم « الكينونة من أجل الموت » عند « هيدجر » . تلك هي اذن ذروة الاحساس بالعبث : الموت ، كثافة العالم وغرابته وصمته ... الخ

بعد دراستنا وفهمنا للحس العبثي فما هي ((**ماهية العبث**)) وما هو مفهومه ؟! ان طابعه الحقيقي انتقال معاش . نقطة انطلاق كمثيل على صعيد الوجود للشك المنهاجي عند « ديكارت » . العبث في حد ذاته تناقض ، انه تناقض في مضمونه لانه يزيح الاحكام القيمية — مع الرغبة في المحافظة على الحياة — في حين ان العيش في حد ذاته حكم قيمي !! من الخطأ ، ولا شك ، ان تقول ان الحياة اصطفاء دائم . ولكن من الصحيح ايضا اننا لا نستطيع تصور حياة محرومة من كل اصطفاء . فالموقف العبثي ، من خلال وجهة النظر البسيطة هذه ، موقف لا يمكن تصوره بالفعل ، ولايمكن تصوره في تعبيره أيضا(*) !

وعلى هذا ، ان كانت الحياة عبثا ، فهل انتحر ؟!

يضع كامو مسالة الانتحار على عتبة كتابه «اسطورة سيزيف » ، ويعتبرها الاساس والاولى بالبحث من اية قضية اخرى معاصرة . وهي منبع الاتجاه الفكري كله لدى كامو ، على حد تعبير « روبيتر دولبيه » ، وهي لذلك ذات امتياز خاص ، وليست القضية مجرد دراسة عن الانتحار ، بل قضية « استفلال جواب » . ان الانتحار يطرح مسالة « معنى الحياة » . انه الرؤية الغريزية لطابع الحياة الذي يوحي بالسخرية ، والذي يحتمله الانسان بحكم العادة . واذا تجاوزنا الاسباب السطحية ، الاجتماعية منها والعاطفية ، فان يموت المرء بملء ارادته، يفرض انه اعترف — ولو غريزيا — بطابع هذه العادة الذي يوحي بالسخرية وانعدام أي سبب عميق للحياة ، وبالطابع الذي لا معنى له لهذا السعي اليومي (الالي) ، وبعدم جدوى الالم والعذاب .. وباختصار فان الانتحار يعني بكل بساطة « الاعتراف بان الحياة لا تستحق ان تعاش » !! يشعر كامو ، اذن ، شعورا عميقا — كالمرشح للانتحار — بعدم جدوى الحياة اليومية ولا معناها . ولكنه يرفض الانتحار ، لانه لا يتفق مع تجربة المحال ، ولانه يلغي « الوعي السائل » — احد اطراف تجربة العبث — النقيض للعالم «اللامعقول والاخرس» الذي يشكل الطرف الاخر من التجربة . ولذلك فان كامو يؤمن بضرورة الاستمرار في الحياة ، بالرغم من وعينا لعبثيتها ، لانه الموقف البطولي الوحيد(*) (كذا !!) .

كامو ، اذن ، يضعنا امام مفارقة مأساوية ، في وضع معطى سلفا وخال من المعنى . انها معادلة رياضية غير مبرهنة الاسس (الوعي الشفاف مقابل العالم الصلب) وقسرية الحل : فلا بد ان ينشأ الوعي ، في يوم من الايام ، ويؤسس التمرد !! ذلك القدر المفروض الذي يقدمه لنا كامو باعتباره نسيج الوجود الانساني وشرطه ، كما يفعل سارتر في مفهوم الحرية ، ما هو الا تفاؤلية ميتا فيزيقية حديثة وفرض غير منطقي من جهة ، وحتمية تناقض المفهوم الوجودي للحرية الانسانية برمته من جهة ثانية . اننا اذن ازاء بطولة مجانية ، ماهية انسانية وانطولوجية محددة ، **فاذا كان الانسان في وضع معطى سلفا ومحدد مسبقا — ان يكون سيزيف متمردا — فما جدوى وما معنى هذه البطولة العمومية المجانية ؟!**

ان تجريد الانسان ونقله الى مستوى الاسطورة (سوبرمان نيتشه ، اورست سارتر ، سيزيف كامو .. الخ) ومن ثم جعله موضوعا عاطفيا لاثارة الشفقة ، ليس في صالح الانسان كما لاحظ « لفيفر » : ففي صالح الفوق الانساني ينفجر التحت — الانساني . **والخطأ الرئيس ، التناقض الاساس ، في مفهوم كامو العبثي هو ذلك التقابل والانفصال بين الانسان ككائن مجرد ، واع لذاته ، وبين الواقع المجسد العياني ككائن في ذاته ، دون ان يعي او يلمح ايما علاقة ديالكتيكية بينهما** . وهذا الفصل القسري التعسفي ما هو الا مثالية جديدة . فمنذ افلاطون وحتى هوسرل — مرورا بديكارت وهيجل — نجد اشكالا مختلفة لهذا التناقض والانفصال . ذلك هو جوهر التفكير المثالي الميتافيزيقي برمته ، والذي ما عاد يقبله المنطق والعلم والحس السليم . وقد فسر لنا لوكاتش ، وكشف النقاب عن سر هذا الطريق الثالث والجديد باعتباره تجسيدا لازمة الفكر البرجوازي في مرحلته الامبريالية العليا ، باعتباره اسلوبا في احلال **التناقض الوهمي** [الوعي مقابل الكينونة] محل **التناقض الرئيسي** [العلم مقابل الخرافات، الاشتراكية مقابل الراسمالية] .

بعد ان رفض كامو الانتحار الجسدي ، يرفض كذلك الانتحار الفلسفي كالامل مثلا . حيث ان الوعي اذ يجابه

(*) كامو : الانسان المتمرد (ص ١٧) ترجمة نهاد رضا — منشورات عويدات ١٩٦٣ .

(*) روبير دولوبيه : كامو والتمرد — ترجمة سهيل ادريس — دار الاداب — الطبعة الثانية (ص ٩ — ١٠) .

الجدران العبثية ، العالم الصامت ، يبحث عن حياة جديدة ويركن الى « وعد عالم يكون مفتاح لهذا العالم . وجواب الامل هو التأكيد على ان كل شيء سيشرح ويتضح ذات يوم ، وان لكل شيء منذ الان علة وجود : انه الايمان الديني بالطبع ، وان كامو حين يحلل ميتافيزيقيات التعزية هذه يجدها عند الذين قد فجروا وعيهم من خلال الاتصال بلا عقلاني العالم ، من امثال كيفارد وشيستوف وكافكا . والامل بالنسبة الى كامو كالانتحار سواء بسواء ، حيث ان الوعي لا يتلاشى بل ان موضوع رؤيته [عبث العالم] هو الذي يتلاشى . ان الوعي يبقى ولكن حركة الامل فيه تجعل جدران العالم الاخرس والتي كان يصطدم بها ، فجاة شفافة . وهكذا يصبح الموضوع المعطى اللاعقلاني قابلا للتمثل والادراك ، ومن ثم يختفي . بل الاكثر من ذلك : ان الوعي اذ يحرم بعد الان من الموضوع ، ينمحي ويسقط من جديد في سبات الحياة اليومية . وهكذا يكون جوابا غير صحيح ، حيث يلاقي الانتحار في ليل مشترك — دولوبيه ص ١٧ » .

يخلط كامو اذن بين الامل الديني الزائف وبين الامل الواقعي الثوري ، ويعاملهما على صعيد واحد ، باعتبارهما يلغيان جانبا من جانبي المعادلة غير المبرهنة الاسس . ان فهم الواقع المعطى ومن ثم الرغبة في تغييره ، لا يجوز في عالم « كاموي » قائم على فرض منطقي واشكالي ليس الا . وبهذا يتحقق التصور الوجودي في مرحلته الامبريالية لعالم قاتم وقائم في ذاته ، كثيف ولاعقلاني ، ليس ثمة امل في تغييره حتى ولا بهوس وسحر التمرد الفوضوي او الكاموي ، لانه سيكون تمردا بلا هدف ولا امل . حيث ان سيزيف سعيد — هذا ما يدعونا كامو الى تصوره — في لحظة تمرده وهو لا يني بنوء تحت وطاة الصخرة الملعونة ، ويدرك جيدا لعنتها وعودتها كرة اخرى الى اسفل الجبل !!

والجواب الصحيح ، بالنسبة الى كامو اذن ، هو ان « الانسان العبثي » لن ينتحر : انه يريد ان يعيش دون ان يتخلى عن اية قناعة من قناعاته ، دون غد ودون امل ، دون وهم ودون استسلام ايضا .. ان الانسان العبثي يؤكد نفسه من خلال التمرد . انه يشخص الى الموت بانتباه مهووس ، وهذا السحر يحرره ، لانه يعرف اللامسؤولية الالهية للمحكوم بالموت « ان كل شيء مباح ما دام الله غير كائن »(*) . وما دمنا نموت فأن التجارب متعادلة ، والجدير بنا فقط ان نكتسب اكبر قدر ممكن منهـ « الحاضر وتتابع الحواضر امام روح واعية بلا انقطاع هذا هو المثل الاعلى للانسان العبثي !! » فجميع القيـ تنهار امام اخلاق الكم هذه . والانسان العبثي الملقى في هذا العالم ، المتمرد واللامسؤول ، ليس عليه ان يبر شيئا . هذا ما يريد ان يقول به كامو في جميع اثـار الادبية والفلسفية . انه ينصحنا في اسطورة سيزيف ا نعيش اعمق واكثر وليس افضل !! **ان الكم هو المقصو وليس الكيف** : ان يضرب المرء جميع الارقام القياسية ان يكون ، قبل كل شيء ، تجاه العالم في اغلب الاحيا الممكنة ... وباختصار فأن الايمان بالعبث يتلخص فـي استبدال كيف التجربة بالكم . ان كامـو يطالبنا اذ بالتمرد ، ولكن بوعي « فالوعي يولد مع التمرد » . لا ريب في ان التمرد لا يخلق الوعي ، فأن القيمة تسبق العمل . حيث يتساءل كامو : « ما جدوى ان يتمرد الانسان اذ لم يكن في نفسه اي شيء دائم يحفظه ؟ » وهو بهذا يسجل على ان هناك طبيعة بشرية ، أي ماهية تسبق الوجود(*) والتي يوضحها بقوله : هذه القيمة التي تسبق وجود كل عمل ، تناقض الفلسفات التاريخية المحض والتي تذهب الى ان القيمة تكتسب بعد العمل . وعلى هذا فأن كامو بهذه النتيجة [التمرد يخلق قيمة] قد اسس كوجيتو جديدة — اني اتمرد ، فانا موجود(**) (راجع دولبيه — كامو والتمرد ص ٢٩ — ٣٠) .

ان تمردا اجوف على عالم من الحجارة الصامتة لا يخلق وعيا انسانيا او قيمة حضارية . أن تمرداً دائريا لا يطمح في الصعود الى اعلى يبقي الحياة كما هي ، كأنها دائرة مقفلة ، اسطورة عبثية حمقاء : الكينونة الخالية من المعنى ، الرتابة اليومية — القرف ومن ثم الوعي فالتمرد ، دون امل ، دون تغيير ... ماذا اذن ؟! ان

(*) تلك هي صرخة « ايفان كارامازوف » بطل رواية دستويفسكي الشهيرة والجدير بالذكر ان هذه الرواية هي بمثابة الخطوط العريضة لمبادىء التحليل النفسي ، قبل ان يقننها ويبرمجها « سيموند فرويد » ، ولمبادىء وجودية عديدة ايضا . اما قصة « الانسان المرصار » فهي الاخرى بمثابة الخطوط الاساسية لفلسفة العبث الوجودي وخاصة مفهوم « الوعي الشفاف والعالم الصامت » الاثير عند كامو ، وكذلك النزوع المازوشي والمرضي كما هو في رواية « الغثيان » لسارتر .

(*) ان بعض الباحثين يميلون لاعتبار كل مفكر له وجوديته الخاصة . ومع ذلك فان هذا لا ينفي وجود مضامين واسس مشتركة بين جميع الوجوديين . والقاسم المشترك هو اعتبار **ان الوجود يسبق الماهية** : « يوجد الانسان اولا فيكون كذا وكذا — سارتر » ، لكي يتيح هذا الوجود امكانية الاختيار الدائم للانسان الوجودي الحر « حرية مطلقة » . وعلى الرغم من معارضة كامو لبعض المفاهيم الوجودية ، ورغبته في ان لا يعد وجوديا ، غير ان جوهر تفكيره ، والنتائج التي يفضي اليها ، يعد بها وجوديا محضا . وكما قال ماركس فليس المهم ما يعتقده المرء عن ذاته ، بل هو كائن عليه فعلا .

(**) في هذه الكوجيتو يشترك كامو مع الكثير من الوجوديين المعاصرين في الانتساب الى المدارس المثالية — الذاتية (ديكارت خاصة) في اعتبار ان شرط الوجود الانساني يتعلق ، ويتحقق ، ويكتمل بماهية اساسية ثابتة : التفكير — الارادة — الحرية — التمرد .. الخ . وبهذا يكرسون الانفصال الكامل بين وعي الانسان لذاته وبين وجوده الواقعي التاريخي ، اضافة الى معارضة المقولة المادية الديالكتيكية « أولوية الوجود على الوعي » . وسنبحث في مكان اخر هذه الاشتراطية الحتمية التي تناقض جوهر التفكير الوجودي برمته ، جوهر التفكير الوجودي الذي يذهب الى الاعتقاد بان الكائن البشري هو « حرية مطلقة !! » .

تجربة الكم ؟ يا له من تدمير فلسفي !! ان اقصى تصبو اليه الفلسفة البرجوازية هو التاكيد على فردية وتوحد الانسان ، ومن ثم عزله عن مجتمعه وطبقته وجعله يعيش تجربته الخاصة والفريدة ، تجربة الكم الحيوانية منه ، دون الالتفات الى تجارب وقضايا الاخرين ، لان الانسان حسب المفهوم الوجودي ((حرية ومشروع)) . وبذلك يتاكد الجوهر الراسمالي لهذا التصور : أعمل بحرية ، تنصل بحرية ، استغل بحرية ، لا تبرر شيئا لا تكن مسؤولا ... الخ .

ان تدمير العقل هذا يبغي تشويه الوضع الانساني جاعلا من القضايا والتناقضات الثانوية [الوعي تجاه العالم] اساسا لمنطلقاته من أجل اخفاء الشرط الحقيقي للانسان وقضاياه المصيرية ، ازاء الجهل والمرض والفقر ، والعدوان الاستعماري ... ان الوجودية حين تبكي وتمجد الانسان وتحوله الى اسطورة في آن واحد ، تسعى لتجريد الانسان عن ارضيته وواقعيته الجوهرية ومن ثم سلبه علائقه الطبيعية والاجتماعية واعتباره كائنا ميتافيزيقيا يعيش مغامرته الوجودية لوحده . وهذا من اعمق متناقضات البرجوازية واشدها خطرا على مصائر المجتمع الحديث ، حيث تعلن تمجيد الفرد في الظاهر لتسحقه في الواقع ، على حد تعبير لفيفر .

وقد لاحظت (جرمين بري)(*) بحق ، في كتابها عن البير كامو ، ان ابطاله ((**استجفائيين** : يتصرفون في وضع بشري وكأن العلاقات الانسانية ، وما يترتب عليها من مسؤوليات ، غير موجودة)) . وكذلك (طاعون وهران) الذي هو رمز الشر عند كامو ، فانه يستمد قوته الوبائية من عدم الاكتراث الانساني والذي قد لمسناه سابقا في قصة (الغريب) . بيد ان هذا اللااكتراث ينتقل من الفرد (مرسو ـ الغريب) الى المجموع (سكان وهران) لكي تتجسد رؤية كامو العدمية لحماقة الحياة وعبثيتها في صور وابعاد وآفاق اكثر سمولية كجزء من الادعاء البرجوازي لتصور ايديولوجي وفلسفي اكثر عالمية للشرط الانساني !!

(*) جرمين بري : البير كامو ـ ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ـ نشر دار الثقافة في بيروت بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين الامريكية .

لم يكن ابطال كامو [مرسو « الغريب » ومرسو « الموت السعيد »](*) ـ استجفائيين فحسب ، بل هم « كائنات حسية خالصة ، تتلخص الحياة عندهم في الاشباع الجسدي المتصل دون الالتفات الى وضع اجتماعي او علاقات بشرية قائمة ، ودون اعارة الاهتمام لايما قيمة خلقية وانسانية » . ولذا رأينا مرسو (الغريب) يجيب عن السؤال الذي يسعى لمعرفة سر القتل والجريمة بأن الشمس ، او الاحساس بوهج الشمس وحرارتها ، هي السبب في ذلك !! ولا سبيل للخلاص والسعادة بالنسبة الى كامو **الا عن طريق الحواس كامتداد لمفهومه في ضرورة استبدال كيف التجربة الانسانية بكمها !!**

ان مشكلة السعادة هي من القضايا الاساسية الكبرى التي شغلت تفكير كامو في اواخر الثلاثينات وحين كتب كامو (اسطورة سيزيف) اكد « ان البطل الذي يظفر بالسعادة هو الانسان العبثي » . ومرسو رواية (الموت السعيد) يستمد سعادته من الزمن والمال ايضا . والانسان ، حسب مفهوم كامو ، لكي يعيش ويموت سعيدا عليه « ان يكون غنيا » . ولكن كيف يمكن ان يكون المرء غنيا ؟ وهل يجوز ان نقتل لنكون سعداء ؟!

لقد اباح كامو لبطله القتل ، وبرره بتهويمات ومغالطات فلسفية ولغوية ، دونما شعور حتى بالذنب : « وكان يدرك انه بقتله (زغرو) قد عقد معه عرسا كان يشده به الى الابد ـ ص ١٦٦ من رواية الموت السعيد » .

(*) « مرسو » هو الاسم المشترك لبطلي قصتي (الغريب والموت السعيد) . ولاسباب عديدة نرى ان الغريب هي التعويض شبه الكامل عن الموت السعيد ، مما دعا كامو الى عدم نشرها في حياته . فالبناء الفني لكلتا القصتين واحد . والنزعة السلوكية، والوضع الفردي لكلا البطلين ، ايضا متشابهان : كائن مقطوع الجذور ، صموت ، منسحق ، مصدور ، خارج من معمعةحرب كونية وقد ثقل عليه الشعور باليأس والضياع واللا جدوى . انه الانسان الخالي من الهدف والقيم الاجتماعية ، والذي يحيا بلا أمل بين عالمي الحلم والحقيقة (الشبه كبير وواضح الى حد ما بين ابطال كافكا ، وخاصة « ك » في رواية القضية وبين ابطال كامو الاستجفائيين . ومما يضعف من اصالة كامو الفنية تقليده في اختيار نماذج معروضة سابقا ، وخاصة في روايات دستويفسكي) . والحدث الرئيس ، في كلتا القصتين ، مشترك ايضا . انه جريمة القتل الواعي : مرسو الغريب يقتل عربيا ، ومرسو الموت السعيد يقتل انسانا عاجزا ليستولي على ماله ، ولذلك فالنهاية واحدة لمرسو (المقصلة والموت) دونما شعور بالذنب او الاسى . وهذا الموقف يذكرنا بمفهوم الكينونة من اجل الموت عند «هيدجر» ، وبروح التشاؤم البطولي عند « نيتشه » ايضا .

الموت السعيد ، بصفتها رواية ، مدانة في اساسها الاخلاقي والفني والجمالي على حد سواء . ليس لتفكك عناصر الملاحظة وضعف الخيال الروائي حسب ، بل لخلوها من البناء الفني المحكم، واتجاهها اتجاها فلسفيا تأمليا وشعريا يصل حد الهلوسة والتناقض واللامعنى .. دعا « ساروكي » الى الاعتقاد بان احسن ما في الرواية ليس روائيا .

وبذلك تنفضح اخلاقية كامو الوجودية اللاانسانية وتقطع صلتها نهائيا بدستويفسكي ـ الاب الروحي للوجوديين ـ كاتب رواية « الجريمة والعقاب » الاخلاقية . والاحتجاج الذي يوجهه كامو في (الانسان المتمرد) الى الايديولوجيات والانظمة الشمولية في تبريرها القتل الجماعي ، يعود لينسحب عليه ويسمه ليس بالتناقض حسب ، بل وبالنفاق الكاذب ايضا .

ولكن ما طبيعة السعادة التي يجدها « مرسو » على حساب جسد ومال زغرو ؟ ان مرسو في قصة الموت السعيد لا يسعى الى السعادة بذاتها ، بل الى ارادة السعادة : « ان ما يهم فقط هو ارادة السعادة ، نوع من الوعي الهائل الحاضر ابدا ، اما الباقي فليس الا ذرائع ص ١٤٥ » . **وبذلك يكون الفعل بمثابة غاية بحد ذاته ، ويحل التصور محل الواقع المعاش** كما هو عند « شوبنهاور » ، فليس المهم الحياة بل ارادة الحياة . وكما هو عند (كازنتزاكي) بالنسبة للحرية ، حيث النضال من اجلها هو الغاية المنشودة بذاتها .

ان ما يطلبه مرسو هو : ان يكون اما نفسه ولوقت طويل وحتى النهاية ، وان يتلاءم مع كل شيء . ولكن حقيقة « السعادة الفريدة » التي يبحث عنها ، كانت **تجد شروطها المخجلة** في اليقظات الصباحية والحمامات المنتظمة وسلامة الصحة الواعية (ص ١٣٧) . **ولذا فهو** ينطلق مسرعا جدا ليستقر في حياة لن تتطلب منه فيما بعد اية جهود ، وليؤالف تنفسه مع الايقاع العظيم للزمن والحياة . وسعادته تقوده اذن الى الفن الاعظم : « فن عدم القيام بشيء ص ١٣٨ !! » وهي تقتضي منه امورا عديدة غير المال والزمن منها توفر حد ادنى من **الغباء** لاستكمال السعادة لحياة ما (ص ١٣٩) وان **لا نكون محبوبين** : « انني اخشى ان احب ، وهذا سيمنعني متى ان اكون سعيدا ص ١٢٦ »(*) . **وضرورة الاحساس بالخطا** : « لئن كنت سعيدا فذلك بفضل احساسي بالخطأ ص ١٤٦ » ... الى اخر هذه القائمة من التهويمات اللا منطقية التي تحاول ان تغري القارىء بان « مرسو كامو » قد عاش ومات سعيدا ـ لانه استنفذ حياته ـ بعد اصابته بداء الجنب على حساب جسد الاخر وماله ، دون ان يشعر بالندم او ايلام الضمير ، لان **الاخر بالنسبة للفكر الوجودي هو الجحيم** ، وان من يشعر بالندم هو جبن القتلة على حد تعبير سارتر في مسرحية الذباب !!

لقد استطاع كامو ، من خلال قدرته الفنية في روا[ية] الغريب ، جر قرائه الى موقف التواطؤ مع بطله ، وبذل[ك] قلب مفهوم العدالة ، واصبح المجرم شاهد ادانة لماكين[ة] النظام القائم واعرافه وقوانينه « على الرغم من كون[ه] انسانا قاتلا قد اخذ حياة انسان لا حق له في أخذها » وهنا يثار السؤال التالي : **لِمَ فعل كامو مثل هذا ؟** يتحدد الجواب على ذلك من خلال فهمنا لمنطق الفلسف[ة] الوجودية ونظرتها لعلاقة الفرد بالكائنات الاجتماعي[ة] الاخرى . انها ترى فيها علاقة تناقض اصيل ، سلب جوهري وانفصال دائم ، حيث ان مجرد وجود هذا الكائن العاري المتوحد في الكون هو عبث . وان وجود الاخرين جريمة . فهناك علاقة استلاب فيتشي معمق في نظر الاخرين « الكثار » الى الواحد . وهذه النظرة تنطو[ي] على مهالك كثيرة بالنسبة للفرد .

فكامو ينحاز اذن ، بالضرورة الحتمية التي تتماشى مع المنطق الوجودي ، الى الفرد ويبرر فعله ضـ[د] المجتمع الذي لا يرى فيه غير سديم كثيف ومزعج : ان[ه] مجرد مواصفات وروادع ومعايير خلقية ومتطلبات حياتي[ة] وشعائر ... الخ تتجمع وتتمركز في صورة « ماكينـ[ة] ساحقة ماحقة تمد يدها ، في اية لحظة تشاء ، لتنا[ل] ببساطة « الكائن الفرد » وتجتز عنقه » . وهذا المنطق الوجودي لمفهوم الحرية الشخصية ، وعلاقة الكائن الفر[د] بالمجتمع ، يذكرنا بنظرة كل من جان جاك روسو وبرتران[د] رسل . انهم يرون المجتمع الاعلى شكل « قوة تضع حد[ودا] وقيودا على حريتنا ، وبالتالي تعرقل تطور شخصياتنا فكل الالتزامات الاجتماعية هي في نظرهم قيود على الحري[ة] التلقائية . ويفهم من ذلك ضمنا ان الحيوان وحده هـ[و] الكائن الحر بالفعل » . **فنظرية كامو الفردية تلتقي وتنسج مع نظريات (روسو) و (جون ستيوارت مل) الليبرالية ومع نظرية (رسل) في الفردية الفوضوية ـ التي هـ[ي] حصيلة نظريته في الذرية المنطقية ـ والتي تنظر الـ[ى] الاشياء والامور من خلال منظار تعددي لا يرى العلاقـ[ـة] الديالكتيكية الصميمة القائمـة بين الفرد والمجتمع فالانسان ليس وحدة ذرية تتيه في الفضاء ـ بعد ان تا[ب] الوجوديون عمل (لايبنتز) في ايصاد الابواب والنواف[ذ] عليها ـ بل هو كائن اجتماعي بالطبع والضرورة ، وليس لتطور هذا الانسان من مستقبل بمعزل عن الناس الاخري[ن] فالمجتمع هو اداة الحرية الوحيد على حد تعبير المفكـ[ر] التقدمي جون لويس .**

يبدو جليا ان الوجوديين غير متماسكين فلسفيا ، يقبلون على الرغم من مذهبهم في عبثية الوضع الانساني فكرة الانسان الاشتراكي الحر والملتزم في وقت واحـ[د] كما هو واضح عند سارتر خاصة . وقبولهم فكرة الانسا[ن] الاشتراكي لا يعني انسجامهم وتبنيهم للفكر والسلـو[ك] الاشتراكيين ، بل تخلصهم من تهمة المواقع اليمينيـ[ة] (البرجوازية ـ الرجعية) التي كان يورط نفسه بهـ[ا] استاذهم وملهمهم الروحي نيتشه ، وذلك بتوجيهه بعض

(*) ان الحب في المفهوم الوجودي (خاصة عند سارتر وكامو) هو بمثابة قيد على الحرية الانسانية : « امتلاك واستعباد » . باعتبار ان هذا الكائن الذي هو **ليس الاسلب باطني محض ،** معرض لان يكون موضوعا مرئيا وفيتشيا من قبل الاخر ـ الحبيب . ولذا فالعلاقة القائمة بين العاشقين هي بمثابة **«علاقة صراع وصدام دائم»** . وقد كتب كامو في الانسان المتمرد قائلا : كل انسان تعتمل في نفسه الرغبة الشديدة في البقاء والتملك ، يتمنى **الموت والعقم** للمخلوقات التي أحب (ص ٣٣١) .

الشتائم المباشرة والوقحة للاشتراكية والنزعة الانسانية . **وليس المنطق الوجودي هو ابعد ما يكون عن الاشتراكية العلمية حسب ، بل المواقف الوجودية المتفلتة والرجعية ايضا** كما هو حاصل في موقف (هيدجر) من النازيين ، ومواقف سارتر من القضية الكورية والفلسطينية ، ودعوة (كارل ياسبرز) الرجعية لمساندة الكيان الاسرائيلي والحرب الذرية ، وموقف كامو المشين من الثورة الجزائرية . حيث ان موقفه من القضية الجزائرية كان يتماشى والنزعة الاستعمارية ـ العسكرية للطبقة السائدة في فرنسا انذاك . فقد اسبغ بمفهومه عن « وحدة ثقافة البحر الأبيض المتوسط » **طابعا شرعيا على امتلاك فرنسا للجزائر** . وقد كان ينظر الى المواطنين الجزائريين باحتقار وعدم مبالاة ، باعتبارهم مواطنين من **الدرجة الثانية** ، حيث لاحظ (ك. ك. اوبراين) في كتابه عن البير كامو(*) خلو رواية الغريب من اسماء الشخصيات العربية «وكأنهم قطع من الحجارة او اشجار يابسة » ، اضافة الى تركيز الاهتمام على بطله مرسو القاتل **واعتباره شهيدا** ومن ثم عدم الاكتراث للرجل العربي المقتول « وكأنه ليس انسانا » ان تصوير المحكمة وكأنما هي في وضع غير منحاز بين رجل فرنسي واخر عربي ، **انما هو** انكار ضمني للواقع الاستعماري وتثبيت للادعاءات الاستعمارية الباطلة على حد تعبير (اوبراين) ، ففي صميم الرواية تكمن اسطورة اجتماعية محددة جوهرها تأييد الوضع الراهن في الجزائر حيث كان كامو يعتبر ان **استمرار الحكم الفرنسي امر مفروغ منه** (راجع ص ٣٢ من كتاب اوبراين) .

واسطورة « الطاعون » هي الاخرى ترمز الى النازي الالماني المحتل وقد جثم على صدر فرنسا ، ولذا فنحن لا نرى الا فرنسيين يحاربون الطاعون في مدينة صغيرة خالية من السكان] او هكذا بدت في الرواية ـ وسكان وهران هم عرب بالطبع ! [هي بمثابة الفرع من الشجرة الام « فرنسا ـ المقاومة » . وان كان ثمة انتصار على الطاعون ـ الذي هو رمز الشر ـ فان كامو يعظ ويحذر من جراثيم الطاعون تستطيع ان تختبىء سنوات طويلة ثم تظهر في يوم ما لتوقظ جرذانها .. وبذلك يكون الواعظ نفسه قد اصيب بالطاعون دون ان يدري ، لانه قد اشار الى الثورة الجزائرية باعتبارها رمز الطاعون المقبل ، او حسب لغة كامو المجازية بمثابة الطفح الجلدي الذي انبثق من الدمل والصديد اللذين كانا يعملان عملهما داخل المجتمع . **لقد اعتقد كامو اذن ، ان من الممكن القضاء بطريقة ما على الاستعمار دون الحاجة الى خروج فرنسا من الجزائر !!** (اوبراين ص ٧٩) .

ان قوة « العدالة المطلقة » التي طالما تشدق بها كامو من أجل « استعادة الجزائر واهلها » ، ما هي الا استمرار للعبة الديمقراطية البرجوازية الكاذبة . حيث ان الصيغة التي اقترحها كامو عام (١٩٥٨) هي امتداد للصيغ المتعاقبة ، التي طالما عرضتها الحكومات الفرنسية ؛ والمقصود منها **شل حركة الشعب الجزائري من خلال عزل جبهة التحرير** . وقد ادرك « اوبراين » بان هذه الصيغة غير قابلة للتنفيذ الا بعد اخضاع الجبهة الجزائرية . وهكذا فان شعار « المشاركة الحرة » الذي كان يدعو اليه كامو ، يتطلب **انتصارا عسكريا** فرنسيا على الثوار ، وبعد تحقيق ذلك يمكن توسيع نطاق حقوق الانتخابات ليشمل السكان العرب ، ومع ذلك فان بامكان الحكومة الفرنسية نقض نتائج هذ العملية الديمقراطية الزائفة (راجع ص ١١٩ من كتاب اوبراين الانف الذكر) . ان كامو قد **عارض** باستمرار فتح باب التفاوض مع جبهة التحرير ، لان هذا التفاوض يمكن ان يؤدي الى **منح الجزائر استقلالها** مع اسناد الحكم فيها الى اشد زعماء الثورة تطرفا .. ومن ثم الى اذلال ملايين الفرنسيين وما يمكن ان يستتبع ذلك الاذلال على حد تعبير كامو نفسه . وهكذا تنفضح لعبة « الديمقراطية والعدالة المطلقة » التي تسعى الى الحيلولة دون انجاز الاستقلال الحقيقي للجزائر ، ذلك الاستقلال الذي ارعب كامو والطبقة البرجوازية الفرنسية ايما رعب . حيث خطب كامو اثناء تسلمه جائزة نوبل قائلا : **انني اؤمن بالعدل ولكن ادافع عن أمي قبل الدفاع عن العدل !!** (مقابلة ستوكهولم في ١٤ كانون الاول ١٩٥٧ ـ كيو : البير كامو « الدراسات » ـ نقلا عن اوبراين ص ١٢١) .

بالطبع ان موقف كامو ونظرته هذه ينبعان من ثقافته البرجوازية وينسجمان معهما . وقد لاحظ اوبراين بحق ، ان مؤلفات كامو لا تدل على وجود علاقة مباشرة بينه وبين الاشتراكيين ، او بينه وبين العرب كما هو مزعوم : فثقافته الفكرية مستمدة من ثقافة شباب الطبقة الوسطى في عصره ، حيث ان لنيتشه واندريه جيد اثرا قويا في تفكيره ، اما ماركس فلم يترك على افكاره اثرا يذكر . وباختصار فانه كان فرنسيا كاملا



سارتر

(*) كونر كروز اوبراين : البير كامو ـ ترجمةعدنان كيالي ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر (الطبعة الاولى ١٩٧٣) .

من حيث ثقافته وانه كان يجد الامل في تحسين حالة المستقبل كامنا في المعسكر الغربي وحده ، حيث كتب قائلا : ان عيوب الغرب لا حد لها ، كما ان اخطاءه وجرائمه حقيقية .. ولكن ، عند التحليل النهائي ، ينبغي ان لا ننسى **أننا الشعب الوحيد** الذي يملك القدرة على التحسين والتحرير اللذين يكمنان في عبقرية الحرية (كذا .. !!) .

* * *

يعتقد سارتر ان الانسان حر حرية مطلقة ، بل انه حرية ومشروع ، وهو ايضا محكوم بالحرية لانه لم يخلق ذاته(*) . والحرية السارترية تنبع عن اختيار لا شعوري ، ينزع نزعة سايكولوجية أكثر منها عقلية منطقية حيث كتب في « الوجود والعدم » : عند النقاش والمحاكمة يكون الامر قد قضي . وبذلك نستطيع ان نلمس الهيمنة التي يمارسها مفهوم « فرويد » عن اللاشعور . وهذا الفهم للحرية اضافة الى انه لا عقلي ، وتعسفي ، وغير قابل للمراقبة ايضا ، فانه يثير جملة من الالتباسات والتسؤلات :ـ يا ترى من هو الذي حكم على الانسان بالحرية في عالم خال من الاله والحتم التاريخي والطبيعة البشرية ؟! اليس هذا ما يناقض المبادىء الاساسية للشرط الانساني حسب التصور الوجودي ذاته ؟ ثم السنا نقترب من مفهوم (نيتشه) القائل بان الانسان لن يكون حرا الا اذا كان الله غائبا ، ومفهوم دستويفسكي الذي يربط الحرية الانسانية وسلوك الكائن البشري بواقعة وجود الله أو عدمه(**) ؟ أليست هذه قدرية جديدة وفرضية غير مبرهنة ولا عقلانية في آن معا ؟! ثم ما هو المعنى العميق والغاية من حرية مشروطة وقدرية للوضع الانساني ، وكيف يمكن ان يكون حرا من هو محكوم ؟!

هذه التساؤلات تجهد الى القاء الضوء الكاشف على تناقضات العقل الوجودي ، وتبين مدى انتقائيته التعسفية ، وما يمكن ان تؤول اليه اخلاق مطلقة وذات بعد واحد ـ نتيجة لمفهوم الحرية المطلقة والمحتومة ـ حيث يستوي ان يكون الانسان قائدا لجماهير شعبه او ان يكون منزويا في خمارة !! ويستوي ايضا من كان منخرطا في حزب ثوري او حزب فاشي ، باعتبار ان الواقعة الوجودية واحدة وصحيحة : ألا وهي واقعة الاختيار الحر والمجرد من المحاكمة العقلية ومن الماضي او من الشروط الاجتماعية الواقعية .. أليست هذه دعوة الى عدمية اخلاقية قريبة من الجنون تقوم على اغتصاب المنطق ؟!

(*) سارتر : الوجودية فلسفة انسانية ـ ترجمة حنا دميان ـ دار بيروت ١٩٥٩ .

(**) هذه الواقعة التي صرخ بها (ايفان كارامازوف) يعتبرها سارتر «نقطة انطلاق الوجودية ـ ص ٢٥ من الوجودية فلسفة انسانية» .

ان النتائج التي يصل اليها العقل الوجودي ، مخيفة حقا . وقد ادرك سارتر هذه الصعوبة التي تواجهها فلسفته الطامحة الى ان تصير « فلسفة المثقفين اصدقاء التقدم والاشتراكية » ، الساعية الى تحويل السلبية العدمية Nihilism التي تناهض النشاط الاجتماعي للانسان وتمجد الفرد المنعزل والمنغلق على ذاته والتي تتميز بها الوجودية الالمانية حيث تستمد منابعها من كيير كيغارد وشوبنهاور ونيتشه وهيدجر ـ الى مذهب نشيط وحيوي يسعى الى « ان يثبت تفوقه على العقل الماركسي في الاجابة عن جميع القضايا التي يطرحها التاريخ على صعيد الفلسفة والعلم الانطروبولوجي والاخلاق والسلوك الانساني ... » . ولهذا يعلن سارتر تراجعا نسبيا عن مواقعه في (الوجود والعدم) وذلك في مقالته السجالية (الوجودية فلسفة انسانية) **ليوائم فلسفته مع اهدافها السياسية ، ومع تطورات العصر الراهنة** ، حيث كتب ما يلي : « انني مرغم على ان اريد حرية الاخرين في نفس الوقت الذي اريد فيه حريتي ... انني لا استطيع ان اعتبر حريتي هدفا الا اذا اعتبرت ايضا حرية الاخرين هدفا ... وما من شيء يمكن ان يكون صالحا لنا دون ان يكون صالحا للجميع » .

هذه التسوية الانتقائية مع مبادىء الاخلاق الكانتية التي سبق له ان رفضها في (الوجود والعدم) ، حيث رفض ان يلقى الغير في عالم متسامح ـ تجد جذورها ليس في عقل تاريخي ديالكتيكي ، بل في مفهوم الحب المسيحي الطيب ، الواسع والفضفاض والعائم ايضا ، من اجل ان يحقق مشروع الانسان الحر في ان يكون الله « ان الانسان هو الموجود الذي يشترع ان يكون الله ص ٨٩٣ ـ

(*) ان اختلاف مفهوم الحرية ينبع من اختلاف الاوضاع الاجتماعية والطبقية لمفكر واخر ، ومن عصر لاخر . فمفهوم « ارسطو » للحرية ، وتقسيمه للبشر الى طبقتين بالطبيعة ـ طبقة الاحرار وطبقة العبيد ـ ينسجم مع الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع الاغريقي القديم انذاك ، ويعبر عنها ايضا ، لان المذاهب الفكرية هي انعكاس للاوضاع الاجتماعية [راجع كتاب ارسطو في السياسة وخاصة الفصل الاول والثاني] ... وانهيار النمط الاقطاعي للانتاج ونمو النظام الرأسمالي كنقيض له ، هو الذي يفسر ظاهرة الصرخة المحمومة التي اطلقها مفكرو البرجوازية الصاعدة ابان الثورة الفرنسية : » دعه يعمل ـ دعه يمر « . فقد كانت الحرية انذاك تعبر عن معنى براجماتي هو التخلص من القيود والاتجاه نحو العمل والانتاج . بيد ان دخول النظام الرأسمالي في طور الاحتكارات العالمية اعطى للحرية معنى جديدا ، **فلم تعد الحرية هي العمل والانتاج ، وانما هي الفعل المطلق أي ان تفعل ما تشاء دونما التزام بقاعدة او قانون ، والا لم تعد حرية !!** لقد تحول مفهوم الحرية اذن ، في المرحلة العليا من تطور ونمو الرأسمالية العالمية ، الى دعوة للتفسخ والتحلل والتنصل عن قضايا المجتمع والانسان المصيرية ... وهذا هو جوهر المفهوم الذاتي واللاعقلاني للحرية الوجودية . والفلسفة الوجودية ـ التي هي امتداد للفكر الميتافيزيقي الغربي ـ تعبر عن أزمة النظام الرأسمالي في مرحلته الامبريالية العليا ، ذلك من خلال نظرتها للحرية كمسألة نظرية ، فردية وتجريدية .

الوجود والعدم » . ولا بد ان تكون الصورة الالهية المطلوبة مسيحية !! . غير ان سارتر قد كتب « ان الانسان لا يستطيع تجاوز ذاتيته الانسانية ص ١٨ ــ الوجودية .. » واصفا هذه الموضوعة بانها المعنى العميق الذي يقوم الوجودية ، **يا ترى كيف يستطيع ان يكون الله من لا يستطيع تجاوز ذاتيته الانسانية ؟ وكيف يبيح سارتر لنفسه ان يتحدث عن اختيار حرية الاخرين عند اختيارنا لحريتنا ، وضرورة الالتزام والمسؤولية ... اذا كان الانسان لا يستطيع تجاوز ذاتيته الانسانية ؟!**

بالطبع انه لا يستطيع التخلص من مذهب « وحدوية الذات » الا ببقفزة دراماتيكية مضحكة ، ليعود واجدا نفسه في صميم الكوجيتو الديكارتي : « لا يمكن ان توجد في البدء حقيقة غير حقيقة الكوجيتو ــ افكر ، اذن انا موجود ــ التي هي الحقيقة المطلقة للشعور الذي يدرك ذاته ... ان الاشياء احتمالية خارج الكوجيتو ص ٤١ ــ الوجودية ... » . وهذه العودة تلائم ما كتبه في الوجود والعدم من **أن احترام حرية الغير ليس آلا لغوا باطلا ، لان مجرد وجودي في العالم مع الاخرين (الجحيم) هو خطيئة !!** باعتبار ان نظرة الاخر تحولني الى مجرد موضوع مرئي ، فيتشي ، ويسلبني ذاتيتي . فالاخر بالنسبة الى التصور السارتري اما ان يكون ذاتا او موضوعا ، ولا يمكن ان يكون شيئا وسطا والصلة الاصيلة بين الذوات هي الصراع : **لا اتصال بيننا ، بل صراع دائم (سارتر)** . وبناء على هذه النتيجة يقيم سارتر علم علاقات واخلاق يقوم على اساس دائري ، في دورة دائمة من الفرار والتعقب ، بشكل نزاع . حيث ان النزاع هو المعنى الاصلي للوجود ، والذي سيفضي حتما الى **الامتلاك والاستعباد** ــ هذه هي نفس الصفات المستعملة من قبل سارتر في كتابه الوجود والعدم ص ٥٨٨ ــ حيث ان دورة العلاقات الانسانية تأخذ هذا المسار ، كما جاء في الفصل الثالث من الكتاب المذكور : الحب ــ اللغة ــ تعذيب الذات ــ اللامبالاة ــ الشهوة ــ الكراهية ــ السادية .

بالطبع انه التصور الوجودي للمرحلة الامبريالية الذي يريد ان يؤكده سارتر في مفهومه للحرية(*) ، حرية الذات المطلقة ازاء حريات هي الاخرى مطلقة ، حيث ان الانسان لا يعود الى مجرد ذرة مغلقة حسب المفهوم « اللايبنتيزي » فقط ، بل لا يحد بقوانين أيضا ، وينزلق من كل محاولة لفهمه وادراك شروطه الكونية وعلاقاته الاجتماعية والطبقية ، استنادا الى الغياب الوجودي للماهية البشرية والطبيعة الانسانية .

ان الفلسفة الماركسية ترفض المفهوم الارسطي ، وكذلك المفهوم الميكانيكي للانسان ، وترى فيه ــ اي الانسان ــ مبدعا وخالقا للقيم والاشياء والحياة . بيد انها ترفض في الوقت عينه ان تراه **مجرد ذات منعزلة ، قلقة وعدائية في عالم كثيف واحتمالي** .. بل هو كلية شروطه وعلاقاته . وكما قال جارودي فأن التاريخ الانساني لم يعرف نضالا فرديا مميزا للحرية بل مجموعة نضالات لشعوب وامم وطبقات اجتماعية متعددة ، وان حريتنا ليست شيئا انزوائيا ، فحرية الاخرين هي الشرط الضروري لحريتي دون ان تكون حدا لها وا انتقاصا منها ، وانني لست حرا حقا الا عندما يكون جميع من يحيط بي احرار .

ان وهم حرية الذات الفردية ، لا يمكن ان يتحقق في ظل مجتمع امي ومربض ومستعمر « فلكل شيء في الوجود ضرورات وقوانين . والانسان الفرد يزداد حرية كلما ازداد معرفة ووعيا بهذه الضرورات والقوانين ، حيث ان الحرية **معرفة الضرورة** على حد تعبير هيجل . والفرد المنعزل ليس حرا لان الحرية مسؤولية اجتماعية وانسانية تزداد بازدياد ارتباط المرء بمجتمعه وتحضره ووعيه وتحكمه بالطبيعة وخيراتها من أجل التقدم الانساني »(١٢) وبذلك لا تكون الحرية مجرد القدرة على التحكم في قوانين الطبيعة حسب ، بل والقدرة على التحكم بذواتنا ايضا . وهذا لا يعني ان الحرية مسألة « باطنية محضة » تخص الذات وحدها ، بل هي وبالدرجة الاولى مسألة اجتماعية وموضوعية تخص الحياة العينية للانسان . والحرية بهذا المعنى لا تكون مجرد هبة **فطرية او ملكة موروثة** ، كما تصورها عمانوئيل كانط ، بل هي ثمرة من ثمار التطور التاريخي ، وعملية مستمرة يحقق الانسان من خلالها انتصاره على الطبيعة وتمرده على العبودية الاجتماعية والغرائز الحيوانية .

ان العقل التاريخي الديالكتيكي لا يرى الحرية كمشكلة نظرية تجريدية ، بل هي في المقام الاول **مسألة عملية** تقوم على الممارسة اكثر من قيامها على التفكير المجرد ، لان الفعل الحر لا يقوم على مجرد المعرفة ، وانه من ناحية اخرى يدور في الزمان والمكان ، ويرتهن بالظروف الاجتماعية التي تحيط به . فالمعرفة وحدها لا تجدي فتيلا ازاء مقتضيات العمل وصيرورة الواقع الوضوعي على حد تعبير « العالم » .

لقد تساءل لينين في نقده لشعوذات واكاذيب التحررية البرجوازية « **الحرية لدى طبقة ولاية غاية ؟ المساواة بين اية من الطبقات ، ومن اية ناحية ؟** » . ان التهرب من الاجابة على هذه الاسئلة ، بوعي او بغير وعي ، يعني حتما الدفاع عن مصالح البرجوازية ، مصالح الرأسمال ومستثمريه . ويعني ايضا السكوت عن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، ومن ثم الاعتراف الشكلي الصرف بالحرية والمساواة مقابل اخفاء واقع العبودية الفعلي وانعدام المساواة الاقتصادية لجميع الشغيلة والمستثمرين . فطالما لم تلغ الطبقات يكون الكلام عن الحرية والمساواة خداعا للنفس ، خداعا للعمال والشغيلة، لانه بمثابة افيون وهمي يسعى الى ابقاء النظام البرجوازي قائما على اعمدة من التناقضات السلبية ، يعد ، كغمامة الصيف ، بجنة عدن دون ان يفي . ولذا يجب التنديد ،

(*) محمود امين العالم : معارك فكرية ــ كتاب الهلال (العدد ١٧٧ ــ ديسمبر ١٩٦٥) .

بلا رحمة ، بالاوهام الديمقراطية البرجوازية الصغيرة عن الحرية والمساواة ، كما دعانا لينين ، وتقديم رؤيـة واقعية وعملية عن الديمقراطية الحقيقية التي ينبغي ان تمارسها الشغيلة ضد مستثمريها ، وعن المساواة بين صفوف الجماهير العريضة التي تصنع الحياة والتاريخ .

ان حقبة من التاريخ العالمي يافل نجمها لتحل محلها حقبة جديدة تتميز بالنضال ضد الاستغلال الطبقي ، ضد الاحتكارات الامبريالية، ضد القمع الاستعماري والعنصري ... ولتحقق مملكة الحرية والمساواة الحقة ههنا في هذا العصر ، وعلى هذه الارض ، وليس في ايما عصر او مكان اخر .

٣ ــ البحث عن معنى

ما هي الغاية ، ما هو الهدف ، من الوجود والفعل الانساني أزاء لانهائيين اثنين : الزمان والمكان ؟!

هذا السؤال ، تطرحه الفلسفة الوجودية عامة ــ انه البحث عن المعنى ، ذلك البحث الذي اقام صرحا كبيرا للفكر اللاهوتي ــ الميتافيزيقي . والوجودية تنتهي الى نفس مضامين هذا الصرح ، ليس في طريقة طرحها للسؤال كمسألة اساسية جوهرية للوضع الانساني والعبثية التي تلازم قدرنا ، ومناقشتهم للمسألة بحجج ذات مقدمات لاهوتية محضة فحسب ، بل لانهم يفترضون ــ كما هو عند اغلب ممثلي الفلسفة المثالية : افلاطون ، ديكارت ، بيركلي ، كييفارد ، وليم جيمس ، وحتى برغسون ــ وجوب ضرورة ان يكون للوجود الانساني غاية اخيرة ، صالحة وابدية ، دون تبرير او برهان على وجوب هذه الضرورة ، اضافة الى احكام جواب عبثي لذلك السؤال العبثي في حد ذاته ، كما لاحظ « اسحق دوتيشر » . فالمعنى والعبث ، ليسا الا الوجه والقفا لشيء واحد : فلا يمكن الكلام عن العبث الا حين نستلزم المعنى .

ان البحث عن معنى للحياة خارج الوجود ، والوعي لهذا الوجود ، بحث لا طائل وراءه ، لانه خارج عيانية الوجود ووهم ميتافيزيقي جديد ليس الا . ولذا فالالحاد الوجودي المزعوم ، الحاد كاذب . فهو لا يزال يبحث عن غاية وعلة فوقية ، خارجية ولا انسانية ، لهذا الوجود . الحاد متكابر وعاطفي لا يؤمن بالعلم او المعرفة الانسانية ، ويعمل جاهدا لجعل الانسان صورة للاله(*) .

هكذا اذن ينتهي الوجوديون الى نفس الاحتجاج الديني : ان لا يكون هناك اله ، غاية عليا ، فكل شيء باطل وغير مبرر وعبث « وبالفعل فأن كل شيء سيكون محللا في حالة عدم وجود الله ص ٢٥ ــ الوجودية فلسفة انسانية » .

وعلى الرغم من اننا نستطيع ان نستشف وجود **نسغ رافض** في فلسفة العبث الكاموية ، غير ان هذا النسغ لا عقلاني وتدميري ، قريب للهدم الفوضوي اكثر من اقترابه للبناء الاشتراكي الثوري . فغربة « مرسو » عن فساد مجتمعه وصدقه مع ذاته ، ورفضه في ان يلعب لعبة قومه ، لا تفضي به الى **تمرد عقلاني منظم وموجه** قمين بتدمير الاسس المنخورة للمجتمع البرجوازي وبناء الاسس المتينة لمجتمع انساني واشتراكي خال من الكذب والزيف والتناقض والاستغلال الطبقي والاستلاب الانساني الذي هو السبب الحقيقي لتلك الغربة . ان كامو خير ممثل لطبيعة طبقته البرجوازية الصغيرة القلقة المتذبذبة والمتشنجة . فهذه الطبقة تختار الحلول التدميرية اللاعقلانية ــ كما اختار كامو التمرد امام كل شيء ــ لتفضي بنا الى مسارب العدمية اللامجدية . **انه يرفض ان يشارك في بناء العالم ،** لان اي عالم ، مهما كان مكتملا ، يموت فيه الاطفال لا يجدي فتيلا ، كما عبر ذلك كامو نفسه . **فعلى الانسان اذن ، كل انسان ، ان يكون « سيزيف عصره » يحمل صخرته الى اعلى ابدا ، دون ان يتساءل او يشكو او يأمل ... يا لروح الشعر الصافي !!**

واذا كانت ثمة رغبة في تخطي الواقع المعاش ، ثمة صحوة ازاء عبثية ورتابة الحياة وقناعات المجتمع المريضة ، فأن هذه الرغبة ــ صحوة كاليغولا مثلا ــ **تلتقي مع الفكر المسيحي** في ضرورة اقامة **عدالة جديدة** . فرعايا «كاليغولا» جميعهم أثمون ، لان طبيعة الاشياء تنص على ان الناس جميعا حكم عليهم بالموت !! وهذا تبسيط مبالغ فيه للمنطق الكامن وراء الفكرة المسيحية القائلة بخطيئة الانسان الاصلية ، كما لاحظت (جرمين بري)(*) : ان

(*) لقد ذكرنا سابقا عبارة سارتر حول الانسان الوجودي «الحر» والذي يسعى لان يكون الله . وها هو كامو يكتب في الانسان المتمرد : والانسان الممزق على هذه الصورة (الانسان العبثي ــ المتمرد طبعا) يبحث دون جدوى ، عن الشكل الذي يكسبه الحدود التي يصبح ضمنها االها . ص ٣٣٢ . ولقد ذكر السيد (مورفان لوبيسيك) في كتابه فن كامو ، المحاولات العديدة التي سعت استعادة الابن الضال (كامو) الى خطيرة المسيحية . حيث اعترف الاب «بروكبرجيه» بأن مشاعر كامو « لم تكن معادية للمسيحية » ، ومن ثم فهو داعية للاخلاق ووارث أمجاد اليونان والمسيحية . وقد تحقق « لوبيسيك » من ان كامو كان يأنس الى صحبة الكهنة ، وان أثر المسيحية يلاحق مؤلفاته ، مستشهدا بالعديد من مؤلفات كامو الروائية (العادلون ، السقطة ، المنفى والملكوت) والمسرحية (الممسوسون ، صلاة على روح راهبة) والمواقف والشخصيات (مارتا وماريا في مسرحية اللبس ... الخ) وقد استنتج السيد « لوبيسيك » من كل ذلك ، ان كامو لم يعلن تأييده للالحاد « ولا اعتقد انه زعزع اي ايمان عميق في نفوس الخلق ، فذلك ما لم يكن يتمناه » ص ٢٠٨ . وقد فسر « اوبراين » قصة « السقطة » باعتبارها ذات طابع مسيحي صرف « فتحت السطح الذي ينطوي على التهكم والالحاد نجد روحا مسيحية مؤمنة ايمانا عميقا باننا لسنا في طريق الخلاص والرحمة الا اذا اعترفنا اعترافا تاما بطبيعتنا الشريرة » . وقد اعترف كامو بصحة تفسير «أوبراين» برصانة دراسته هذه ، وذلك في رسالته الى دار النشر الانكليزية « سرز هاميش هاملتون » .

الطاعون بالنسبة الى « ريسو » (احد ابطال رواية الطاعون) هو ذلك الوعي الداخلي الواضح بأن وجود الانسان في هذه الدنيا ما هو الا صدفة عابرة « وهذا الوعي مصدر كل عذاب يتسم به عصرنا » . وقد قطع (تارو) أواصر الصلة بينه وبين مجتمع ادانه ، مجتمع يقتل الناس عن عمد بأسم العدالة . وعندما حاول العمل في قضايا سياسية ثورية ، من اجل الاصلاح الاجتماعي ، وجد ان هذا اللون من العمل يجعله مرة اخرى شاهدا على اعدام كائنات انسانية باسم العدالة . عندئذ يدرك (تارو) ان ليس ثمة عقيدة تستحق ارتكاب القتل . ولهذا فهو لن يشترك بعد الان في اي فعل شرير ، وسيناضل ضد الطاعون « بمثل ما يتصف به القديسون من نقاء ونكران ذات » حتى ولو قضي على حياته ، وعلى الرغم من ادراكه الواضح لعدم جدوى فعله ، لان الطاعون هو « تجل رهيب لحتمية موت الانسان » ولكل ما يتواطأ مع الموت : النظم الميتافيزيقية او السياسية ، التجريدات البيروقراطية .. انه يلمح بالطبع الى «الفلسفة الماركسية» والنظم التي تأخذ بهاكدليل عمل !! (راجع ص ١٨٥ — ١٨٦ من كتاب جرمين بري) .

وهنا نجد الطابع النيتشوي ، طابع المأساة النضالية وروح التشاؤم البطولي ، ليتجسد في تقابل ديالكتيكي خال من المخرج او الحالة الثالثة = الصيرورة الجديدة التي يفضي اليها كل تقابل وصراع ، والتي اكدها كل من هيجل وماركس = **لكي يبقي الوضع قائما بذاته ، ولذاته، في آن واحد . انه صراع درامي** مفر **بيد انه لا واقعي ولا انساني على حد سواء . اننا اذن ازاء سلبية قدرية ماحقة** ، فلم نعد نستطيع ان نختار مشكلاتنا ، كما قال كامو في « الانسان المتمرد » ، بل هي التي تختارنا وما علينا الا تقبل هذا الاختيار ، كما تقبل سيزيف مصيره بصبر لا نهائي !! . يبدو جليا ان فكرة الخطيئة المسيحية واللاادرية الفلسفية والاساطير الميثولوجية ، التي تعبر من عجز الانسان البدائي في فهم واقعه ومصيره ، امور تمارس تأثيرها وهوسها اللاعقلاني على تفكير كامو . انه حين يؤكد عجز الانسان عن فهم وتفسير الكون ، وعجزه عن فهم ذاته ، ينتهي الى الالتقاء في ليل دامس مع فلسفات قديمة تجاوزتها تطورات العلوم الفيزيقية والانسانية ، ليصل الى حنين لاعقلاني في تجاوز ما هو معطى « عذاب الانسان الناجم عن كونه آيلا الى الموت » بسبل فوضوية لاعقلانية كالتمرد . **تمرد على الكون الغامض واللاعقلاني ، أم الموت وعجز العقل الانساني ؟!. ان لفظة التمرد تمارس اغراء كبيرا على ذهن القارىء العادي . بيد ان كامو ، الذي يسعى الى اخفاء التناقضات الحقيقية وابدالها بتناقضات ثانوية ووهمية ، يقدم حلولا**

(*) واعادة ايضاالصحوة (كلكامش) ازاء هذه **الواقعة الحياتية** . بيد ان طريق (كلكامش) كان افضل واجدى بكثير من سبيل « كاليغولا » . والسبب يعود الى **الاحساس المرضي** عند كامو في تصديه لمثل هذه الواقعة ، التي هي اكثر من ضرورية . فنحن لا يمكننا تصور عالم وحياة خال من الموت والتغيير والصيرورة !!

وسبلا فوضوية ولاعقلانية من اجل استبدال الثورة العلمية الشاملة بالتمرد التجريدي . ان لاعقلانية الحياة تجد جذورها في واقع الحياة ذاته وليس في مكان اخر ، ولا يمكن القضاء عليها الا من خلال اختيارنا لسبل تفضي الى حياة افضل ، الى تنظيم العالم وعقلنة الواقع . وكل من يختار طريقا اخر ، يقف ، شاء أو ابى ، في الصف المناهض لحركة التاريخ مع اعداء الحياة واعداء العقل . واختيار الفلسفة الوجودية لهذه السبل الفوضوية اللاعقلانية لم يحل الغموض واللامعنى بل زادته وضخمت من عجز الانسان ، وتحولت فلسفة العبث الى عبث لا طائل وراءه ، والى صورة من صور العدمية التشاؤمية .

ان معنى الحياة ينبع من ذواتنا ، تلك اللحظات التي تشحن الفكروالروح بدينامكية التوتر الداخلي اللذيذ(*). وان محاربة شرور الحياة وشقائها ، لا يمكن ان يتم من خلال الرفض الفردي الفوضوي المتسم باخلاقية هيدونية Hedonism(**) بطولية ، بل من خلال **الارتباط المصيري والجدلي الواعي مع المجموع ، مع قوى الحياة الصاعدة ومكتسبات العلم الحديث ، ومن خلال التنظيم العقلاني للواقع المعاش والعلاقات الانتاجية وكل ميادين المعرفة البشرية** . حيث ان الانسان هو الكائن الذي يدارك الموت ، وشركاء الموت ايضا ،حتى ولو اضطر الى تحدي الموت اثناء هذا العراك ، على حد تعبير « لفيفر » : فالانسان ليس مجرد سلب داخلي محض كما تصوره (سارتر) ، وليس فريسة للقوى الكونية كما اعتقد (نيتشه) بقدر ما هو فريسة انحصاره وانعزاله في ذاته ؛ « ففي الرمل البشري ، كل حبة تحس وتظن ذاتها وحيدة ، وفي نفس الوقت تشعر شعورا غامضا انها تحت ضغط الجمهور الذي تؤلف جزءا منه ، تحت ضغط عادات ومراتب الحياة التي تنظمها الطبقة السائدة . فكيف ستحل هذا التناقض ؟؟ بالانفلات نحو غير المعقول ، نحو المستحيل ، فعند ذاك يبتدع الفرد حلا مزيفا — هذا الفرد الراغب في حل لكل شيء وضد كل شيء ، وبكل سرعة في هذا الزمان والمكان — وهذه هي مأساته !! (هنري لفيفر — عن كتاب الادب الفرنسي الجديد ص ٧٣٤) .

وعلى الرغم من ان كامو مفتون بالمهووسين بالتمرد ، فان تمرده هذا **اصلاحي النزعة وتوسطي الحركة اضافة الى انتقائيته** . فهو مفتون بالمتمردين « الميتافيزيقيين »

(*) اختار « اندريه مالرو » في محاربته لعبث الحياة ولا معقوليتها ، الناجم عن الوضع المأساوي للشرط البشري في مرحلة تاريخية معينة ، عكس ما اختار كامو : لقد اختار طريق الثورة التي تتواتر بين شطط (تشن) في رفضه معطيات الواقع الصيني انذاك وبين تنظيم وبناء (كيو) العقلاني . [رواية الوضع البشري او قدر الانسان — مالرو] . **حيث ان الثورة ، رفض وبناء في وقت واحد** . ولذا فان ابطال « مالرو » قد احسوا بغناء ومعنى حياتهم ، من خلال انخراطهم في المسيرة الثورية لجماهير شعبهم ، وكانت سعادتهم حقيقية حتى في لحظة موتهم الطوعي .

(**) الهيدونية : « مبدأ اللذة هي الخير الاسمى » .

على الذات الالهية ، من امثال (نيتشايف وساسنوف وتشيفاليف) ، ومفتون ايضا بالتمرد اللاعقلاني لرامبو وديساد ونيتشه والسرياليين والثوريين الطوباويين الروس ...الخ مقابل افتتانه ايضا بالتمرد العقلاني لكل من هيجل وماركس !! . **وهذا الخليط اللامتجانس ، يعكس المفهوم الفوضوي لتمرد كامو .** فهو ، بالوقت الذي يحارب فيه عنف الجلادين ، يجهد الى محاربة العنف الثوري المنظم للاشتراكيين . وبروموثيوس لم يعد بالنسبة اليه رمزا للنضال والتحدي ، بل هو (قيصر)(*). وبذلك يشير الى قصة انحراف الثورة بأكملها ، معتبرا العنف الثوري الماركسي « جريمة قتل مبررة بالمنطق التاريخي » . وكما لاحظت (بيري) فقد تحول هجوم



دستويفسكي

كامو ، في الانسان المتمرد (١٩٥١) ، الى هجوم على خطر العقيدة الماركسية بدل النازية(*) ، معتبرا اياها **مجرد طوباوية تاريخية تستند على القمع المنظم والفهم « الميكافلي » للاخلاق السياسية .** لقد كتب ماركس « **اذا** لجأت الغاية الى وسائل غير عادلة فهي ليست بغاية عادلة» بيد ان كامو يغتصب منطق التاريخ وينصب نفسه حاكم عدل ، ليقضي بما هو عادل وغير عادل ، انطلاقا من طبيعته البرجوازية الصغيرة التي لابد وان **تعتبر العنف الثوري وسيلة رديئة وغير عادلة .** ولذا فهو يطرح مفهوما جديدا في العنف والثورة ، مفهوما يلغي التمرد باسم « الحرية المطلقة والعدالة المطلقة »(**) ،ليقيم بدله تمردا يطالب « بقسط من الحرية وقسط من العدالة » لكي يتجنب بذلك الارهاب القتال الموجه ضد الحرية الفردية على حد تعبير كامو نفسه . حيث يعرف كامو التمرد بانه « الدافع الذي يبعث فردا ما على الدفاع عن كرامة هي مشاع بين الناس كلهم » . وبذلك سيشمل هذا التمرد فكرة قسط من الحرية وقسط من العدل ، ويؤكد ايضا على « التضامن الانساني » الذي سيضع بدوره حدا للتمرد نفسه !!

هكذا ينتهي تمرد كامو الفوضوي اذن ، الى تعايش انساني ومصالحة طبقية ضمن اطار النظام القائم . تضامن انساني بين السيد والعبد ، بين الرأسمالي والبروليتاري، حفظا لكرامة هي مشاع بين الناس كلهم ، ومحافظة على نسبية اصلاحية مزدوجة في مفهوم التمرد الكاموي ، ليفند المقولة اللينينية « كل شيء او لا شيء » ، وليستنتج ايضا باننا لن ننجو من منطق الهدم بنعمة الايديولوجيا الواحدة (الماركسية طبعا !!) .. مقترحا علينا شكلا من اشكال العمل « المماثل للسندكالية الثورية » التي سبقت الماركسية .

(*) بالطبع ان كامو يشير الى خطأ نسبي في تحقيق واقع موضوعي . **انه يشير الى الظاهرة الستالينية باعتبارها تجسيد للفلسفة الماركسية ، او هي الماركسية وقد تسلمت وتمركزت في اداة** عنف بيروقراطي منظم (الدولة) **وهو بذلك يتناسى او يتغافل عن الواقع الموضوعي والتأريخي** المعقد الذي نجمت عنه تلك **الظاهرة :** حصار الثورة الاشتراكية الاولى من قبل البرجوازية العالمية ، ونهوض الرأسمالية وتسلمها في اعقاب الحرب العالمية الثانية وجريان دماء جديدة في عروقها المتصلبة . ومن حقنا ان نتساءل هنا : **لماذا لم يثر لديه عنف المتمردين المجريين في انقلاب « امري ناجي » ، او العنف الانكليزي ـ الفرنسي ـ الاسرائيلي في الحملة الغادرة على مصر ، اية مشكلات كما حدث في مسألة العنف الماركسي او عنف الثورة الجزائرية مثلا ؟!** بالطبع ان العنف الاول كان الى صالح « اليمين » ، في حين ان الثاني كان عنفا ثوريا الى جانب « اليسار » ، وهو ما رفضه كامو على اساس اخلاقي ليبرر مواقفه الفعلية المتحيزة ذات الدوافع السياسية الاستعمارية .

العنف ، اذن ، ظاهرة واقعية ، له جانبان : « من يستخدمه ، وضد من يستخدم ؟ » . لقد استخدمته الطبقة البرجوازية في ثورتها ضد الاقطاع [الثورة الفرنسية مثلا] ولازالت تستخدمه ضد [illegible] التاريخية الناهضة ، دون ان يثير حفيظة السيد كامو واضرابه من البرجوازيين . **وبذلك يتضح الجوهر السياسي لطبيعة هذا المبدأ الاخلاقي الكاذب .**

(*) حيث كتب عن هتلر ما يلي : « ان هتلر كان مشبعا بفكرة الدولة العالمية ، وهذا سر قوته وتعمقه الفكري واهميته في تاريخنا المعاصر » ، في حين كتب عن ماركس ما يلي : «انه نبي برجوازي، ونبي ثوري في آن واحد ـ كذا !! ص ٢٤٢ ، الانسان المتمرد ـ وانه من ورثة المسيحية ، وان نظريته برجوازية ، بل هي دعوة رجعية ايضا : صك مسحوب على الثقة بالمستقبل .. اما ثوريتها فتنبع من اهتمامها بالواقع الاقتصادي للبشر ، ولكن نبوءات ماركس قد كذبها التاريخ . حيث ان رأس المال والبروليتاريا قد خدعا ماركس . وان ماركس قد خطأ ايضا ـ في نظر كامو ـ حين سمى كتابه برأس المال بدل ان يسميه « الثورة » .. الى اخر هذه القائمة من الترهات . وهكذا فأن تفكير كامو برمته يتسم بغلبة وجهة النظر الشخصية وعنفوان العاطفة الوجدانية في التعليل ، كما اعترفت بذلك (بيري ص ٢١١ ، ٢٤٧) ، حيث منطلقه ذاتي وشخصي في البحث اضافة الى جهله الكبير بماركس والماركسية على حد تعبير (فرنسيس جونسن) ، وعودته الى طوباويات تجاوزها الزمن .

(**) ان (موريس مرلوبونتي) ، الفيلسوف الوجودي الفرنسي ، يظهر تقدما كبيرا على كامو في فهمه لواقع الحرية والعنف ، حيث ان النظام يمكن ان يكون حرا بالاسم وقامعا بواقع الفعل ، وان المسألة « لا تتوقف على مجرد معرفة ما يفكر به الاحرار ، ولكن على ما تعمله ، بالواقع ، الدولة الحرة ضمن حدودها وخارجا عنها » .

انها دعوة الى العودة للمفاهيم الاصلاحية التي اجتاحت الاممية الثانية ـ اممية ما قبل اللينينية ـ وتمجيدا لطوباويات الاشتراكيين الديمقراطيين ـ اشتراكية ما قبل الماركسية ـ وتناغما مع جوقة الاصلاحية الحديثة عند الامريكان والبريطانيين (احزاب اليسار الوسط او الديمقراطي ، او ما يسمى بالفابيين ... الخ) ، واعادة صيغ جديدة لاشتراكية خجولة كان قد دعا اليها مفكرون سابقون من امثال « برتراند رسل » الذي اعرب ـ خريف عام ١٩٢٠ م ، الصين ، محاضرة في شانغشا ـ عن تأييده للاشتراكية دون الحاجة الى دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين قائلا : ان من الواجب استخدام مناهج التربية الحديثة لتغيير وعي الطبقات المالكة ، وبذلك لن تكون هنالك من حاجة الى الحد من الحرية او اللجوء الى الثورة الدموية .. الخ . وقد اجاب « ماوتسي تونغ » على ذلك قائلا : هذا حسن جدا كنظرية ، **ولكنه مستحيل التحقيق عمليا** ، ان التربية تتطلب مالا ورجالا وادوات عمل هي جميعها بيد الراسماليين (المدارس والصحافة مثلا) لان افكار ومبادىء الطبقة السائدة هي التي تسود على حد تعبير ماركس .

ان الراسمالية لن تلقي السلاح ، والاشتراكية لا تتحقق عن طريق المواعظ المجردة ، بل عن طريق النضال الطويل الامد الذي كثيرا ما يقتضي العنف الثوري . ان رسل وكامو ، وجميع الطوباويين النبلاء ، ليسوا طوباويين في افكارهم حسب ، بل وفي اختيارهم وسائل تحقيق هذه الافكار النبيلة ايضا . ان موقف كامو هذا يذكرنا بما كتبه سارتر من ان اي تجاوز مزعوم للماركسية ما هو الا عودة الى افكار سابقة على الماركسية .

٤ ـ مجانية العمل الفني

بعد كتابة « الانسان المتمرد » لاحظت جرمين بري ، ان كامو احس بالهدوء النسبي للتوترات السياسية الاوربية ، فرفض « أراضي الميعاد » المجدبة العقيمة التي يتشبث بها الجدل السياسي ، وانصرف الى التحقيق النسبي لحياة مفروسة في الحاضر : « في هذه الساعة ، فيما يتحتم على كل منا ان يشد قوسه ويبرهن على معدنه من جديد ، ويفتح في التاريخ **وضد التاريخ** ما هو ملك يديه .... علينا ان نودع هذا العمر وعنفه المراهق » . هكذا تنتهي التشنجات الفكرية الكاموية الى هروب ذاتي ، مأساوي وكوميدي في آن معا . ومن ثم تتجه افكاره نحو ذاته ، ونحو عمله الادبي كفنان ، بعد ان انحسر فكره وهوجم من اغلب مفكري اليسار الفرنسي ، ومن قبل ما يسمى باليسار الوجودي ايضا (سارتر وسكرتيره جونسن ، مثلا) .

في نطاق الادب اصبح كامو أكثر حرية في الحركة ، وابتعادا عن الصراعات الايدلوجية السياسية ، لكي يعقد المصالحة مع هذا العالم الذي قد وسمه سابقا بالصمت والجدارية [الطبيعة ، البحر ، التل ، الشمس ، جمال الارض ، التأمل في المساء ... الخ] ، ولكي ينقذ ذاته باتجاهه نحو الاشياء والكلمات اتجاها شعريا ينحو منحى رومنسيا « فرفض بذلك مفهوم سارتر حول الالتزام ، كما لم يجعل الالتزام السياسي عنصرا واجبا في كل انجاز فني عبر العصور فالفنان الخلاق ـ وهو الانسان العبثي ايضا في مفهوم كامو ـ يجد متعة عميقة **في مجانية عمله** ، الذي يرى فيه تحديا دائما لوعيه **الذاتي ، لكي يهيء « تمثيلا ايمائيا » لصور محسوسة تشهد بالواقع الجسدي** لكون لا ينفذ احد الى اسراره . وقد لاحظت (بري) ، بذكاء نافذ ، وجود عنصر ديونيسي اوحى به نيتشه ، في هذا التمثيل الايمائي للحياة ، والذي لمسناه في روايتيه الاولين « الموت السعيد والغريب » .

ان كامو الذي سعى الى التصالح مع هذا العالم عن طريق الحس الجسدي ، لا يهتم الا بالحاضر ويرفض الرؤية المستقبلية ، بدعوى ان الفنان لا يستطيع ان يرى المستقبل مسبقا !! . ولذلك فالفنان يعمل على خلق نظامه هو ، دون الخضوع لاي نظام اخر ، بل انه **يتحدى** اي نظام اخر(*) . وبهذا يقطع كامو الطريق على اية صورة او درجة من درجات ضرورة التزام الفنان بقضايا مجتمعه وعصره « ويعلن هجومه على الموقفين الماركسي والسارتري في وقت واحد . حيث ان الفنان لا يرى معنى او جدوى لعمله ، ولا يكتسب منه ايما أمل ، بل انه يعبر عن « هذا الذي لا معنى له » ليس الا . وهذا هو جوهر الفن العبثي وان كان ثمة رفض وتمرد ، كخطوة اولى للانتقال من حالة السلب والمطالة العبثية ، فانه سيكون لصالح الذات المتوحدة : « ان الخلق هو نشدان للوحدة ورفض

(*) يعيد كامو مفهوم « أندريه جيد » حول الابداع الفني والعبقرية الواحدية المتقدة ، والناجمة عن السوداء التي تحدث الخلل واللااستواء في صميم روح الفنان . ولذا فأن الفنان يتوهم بأنه حين يعيد صياغة العالم ، بصورة معقولة ومتسقة ، انما يعيد تشكيل وصياغة وجوده المشروخ . لقد كتب جيد حول دستويفسكي قائلا : ان في كل اصلاح يوجد دائما اضطراب والاضطراب الذي يشكو منه المصلح هو اضطراب في توازنه الداخلي (تركيبه الفيزيولوجي) بحيث ان القيم الاخلاقية والاوضاع معروضة امامه برؤية مختلفة ، وان المصلح ـ الفنان ليعمل على اقامة الانسجام والاتساق بينها . انه يتطلع الى توازن جديد ، وما نتاجه الا محاولة لاعادة التنظيم حسب تفكيره منطقه ، وتنظيم الفوضى التي يحسها في ذاته ،لان حالة الفوضى لا تحتمل بالنسبة له . [عن كتاب مارك بيغبدير حول اندريه جيد الانسان والناقد والفنان ص ١٣٨ ـ ١٣٩] وحسب هذا المفهوم فأن جيد وكامو سيهملان أثر الواقع الموضوعي ، العالم الخارجي والاجتماعي ، على الفنان الذي سيكون مجرد **وحدة ذاتية منغلقة** ، تتحرك ضمن اطار المؤثرات الفزيولوجية ـ السايكولوجية ، باحثة دون جدوى عن المعنى والاتساق .

للعالم ... وان الواقع مطرود كليا – كامو » وما على الفنان الا ان يقطع صلته بهذا العالم الخام !! وبهذا الموقف لا يضع كامو اي غاية للادب ، كانقاذ العالم العبثي من العرضية ، كما فعل سارتر . وان كانت ثمة جدية ما للخلق الفني فانه يستمدها من الحركة التي تدفع الى **عبادة الله ، أو الى افناء الانسان** . وهذه الحركة تتمثل في اعند مطالبة : الديانة أو الجريمة . حيث ان كل مسعى بشري « يتمثل اخيرا لهذه الرغبة الرعناء ، ويعتزم ان يكسب الحياة الشكل الذي اليه تفتقر ص ٣٣٣ – الانسان المتمرد » . **بيد ان هذا الانسان « الفنان الممزق » يبحث عن هذا الشكل ، الذي يكسبه الحدود التي يصبح ضمنها الها دون جدوى . فهو سيزيف ، وعمله مجرد مجانية عدمية !!**

يرفض كامو « الشكلية المحضة » الناجمة عن الرفض الكلي . ويرفض أيضا « الواقعية » – والواقعية الاشتراكية خاصة – الناتجة عن اصفاء الفنان أو تمجيده للواقع الخام ، لان هذين السبيلين يعدمان الخلق الذاتي « ان الفعل المبدع ينكر ذاته في هذين النوعين من الاثارة ص٣٣٩ » فالفن بالنسبة الى كامو اذن ، لا يمكن ان يكون واقعيا ، حيث ان الواقعية تطمح الى الفوز « بكلية العالم الواقعي لا بالوحدة » وبذلك يتحول منطق عدميتها الى مجرد دعاية (كذا .. !!) . **انه يضع الوحدة ، وحدة الفنان المبدع والمتفرد ، في تناقض مطلق وكلي مع العالم الواقعي ، ويستمد رؤيته الضيقة هذه من مفهوم وحدوية الذات** كما هو عند فيخته مثلا ، ومن اللاادرية الفلسفية البلهاء التي تشك بقدرة الانسان – الفنان على معرفة الواقع في شموله وحركيته الدائمة .

ان رفضه الواقع الفني المعاصر ، المتمثل في هذين النوعين من الاثار هو انعكاس واستمرار لرفضه الواقع السياسي المتمثل في النظامين الرأسمالي والاشتراكي . حيث ان المجتمع أصبح بالنسبة اليه مجرد **سديم انتاجي** غير قادر على الابداع ، وان الثورة « تسعى الى قتل الفنان الكامن في الانسان ص ٣٤٨ » .. وبناء على ما تقدم فأن كامو يستشيط غضبا من اجل هذا الفنان المبدع ، ويلعن العصر ، ويدعو الى حضارة جديدة عن طريق الاهتداء الى **« درب تركيبية مبدعة » !!** . الدرب الثالث الذي طالما حلم به الوجوديون عبثا . اما أعظم اسلوب في الفن بالنسبة الى كامو فهو « التعبير عن اسمى تمرد » . وهذا الاسلوب هو بمثابة « اسلبة غير منظورة » تتجسد في التمثيل الايمائي للحياة !! غير ان هذا التمثل المزعوم ، سوف يسلب الحياة الواقعية من لحمتها ونسيجها ، ويحولها الى مجرد تجريد ذهني ولغوي . ان كامو ، بعد رفضه للواقع السياسي والفني المعاصر ، يبشر بمذهب ابداعي يسعى الى البحث عن الجمال . يا ترى هل سيجد كامو ذلك الجمال في مثل هذا العالم المرفوض سابقا ؟! لا

بد ان كامو قد عثر على ضالته في وحدته التائهة ، بجلال وسحر **عالم صامت** ، ليعيد نزهات « تيتشه » الروحية الشاعرية !!

ان اعتبار مقولة بيسارف Pisarve ، العدمي الروسي ، حول الصراع الموهوم بين الانسان الواقعي « الاسكافي مثلا » والاديب (شكسبير مثلا) هي بمثابة مقولة ماركسية ، وان الاعتقاد من أن الفنان الماركسي ينادي بضرورة « استبعاد الجمال » من عالمنا الحديث .. الخ، ماهو الا افتراء علىالفلسفة الماركسيةواستاطيقيتها الثورية . ان اعتبار الماركسية مجرد نظرية مادية لا تهتم بالقيم الروحية والجمالية ، راي متخلف ، لم يعد يستقطب انتباه الناس او يؤثر على مجرى تفكيرهم . فالماركسية – وماركس على وجه الخصوص – قد مجدت الاعمال الفنية والقيم الجمالية ، وارست دعائم مذهب انساني وجمالي في الفن والادب ، يدعو ويعمل من اجل خير الانسان(*) . **وان ما تحاربه الماركسية ليس الذات**

ترى الماركسية ان الفن هو بمثابة التعبير عن النشاط العملي ، وتطوره مرهون بتطور هذا النشاط نحو الافضل . حيث ان الكيان الاجتماعي للناس هو الذي يحدد ويشكل أفكارهم ومشاعرهم ، وليس هناك ثمة انفصال بين الفكرة والواقع ، بين المادة والروح ... بل انهما يتطوران وينموان معا ، ويؤثر كل منهما منهما بلاخر . ولذا فأن العلاقة بين البناء التحتي (القاعدة المادية للنشاط الاجتماعي) والبناء الفوقي (الايديولوجيا – الادب – العلم ...) هي علاقة **ديالكتيكية حية** . ومن هنا تنبع القيمة الكبيرة التي توليها الماركسية للفن ، باعتباره من **العوامل المهمة في التأثير على الواقع** الحياتي لمجموع البشر ، حيث ان الافكار تتحول الى قوة مادية في اللحظة التي تتمثلها وتتشربها الجماهير العريضة ، على حد تعبير ماركس .

والفن حسب المفهوم الماركسي لابد ان يكون منحازا ، لانه يعبر عن رأي في الوجود وعن مصلحة طبقة ما ، ومن ثم يقف موقفا معينا حيال النظام الاجتماعي القائم . انه يسبب الفرح والمتعة الوجدانية من خلال **كشفه الواقع الانساني** ، على الصعيد الفردي والاجتماعي في وقت واحد ، ومن خلال **طموحاته في تحويل هذا الواقع** تحويلا ثوريا وعميقا . **انه يؤمن بالانسان** وقدرته اللامحدودة وبمستقبله الوضاء . **والواقعية الاشتراكية لا** تسعى الى ترجمة الواقع ترجمة سطحية ، كما يتصور كامو ، بل تجهد الى الكشف عن تعقد العملية الواقعية « لسير الوجود وتنوع الحياة وغناها » وانها تحارب **التبسيطية والمذهبية الضيقة الافق** ، على حد تعبير « انجلز » : فالاتجاه يجب ان يبرز من الموقف ومن نفسيهما ، دون اية صياغة مباشرة . فليس على الفنان ان يقدم الحل التاريخي جاهزا لمستقبل الصراع الاجتماعي الذي يصفه أو يعبر عنه . ولقد طمح انجلز انذاك الى ضرورة جمع الفنان بين **عمق مثله الفكرية** الراقية وبين **حيوية** شكسبير ومقدرته الفنية ، في آن معا . [راجع : الادب والفن في ضوء الواقعية – جون فريفل] .

الخلاقة ، بل عزلة الفنان واعتبار الفن مجرد وسيلة لقتل الفراغ أو اللهو ، او اعتباره مجرد تعبير عن « حاجة ميتافيزيقية اساسية ، الا وهي الحاجة الى الوحدة .
ولما كان الانسان لا يجد في عالمه الواقعي مثل هذه الوحدة ، فانه يجد نفسه مضطرا الى ابداع عالم اخر يقيمه بديلا لهذا العالم ــ كامو » حيث انها لا ترى ايما تناقض بين الفرد والمجتمع ، وان تركيب ذاتية الفرد يتجاوب بالضرورة مع المجتمع . **وان السيطرة الحقيقية على الذات والواقع لا تتحقق في نطاق تلك « العوالم المغلقة » التي يبتدعها الفنان البرجوازي لنفسه ، او باعادة خلق العالم « لحسابه الخاص » ، بل في تعاون الفنان مع المجتمع نحو زيادة وتوسيع آفاق رؤية الانسان المعرفية والروحية ، وتوجيه هذه الرؤية لصالح الحساب العام ، لان الفن هو شكل من اشكال الوعي الانساني والاجتماعي . وان الواقعية الاشتراكية لا ترفض ذاتية الفنان المبدعة ، كما يفتري كامو ، بل ترى انها مرتبطة ارتباطا جدلياً حيا مع الواقع الموضوعي ، بما فيه المجتمع ، من أجل تحويل هذا الواقع تحويلا ثوريا .**



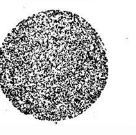
ماركس

ان كامو الذي رفض التعامل مع المستقبل ، ومع قضايا عصره ومجتمعه ، سيكون مضطرا لاختيار لغةبريئة وحيادية تتعامل مع الحس الوجودي ــ الجسدي اكثر تعاملها مع الذهن الانساني ومضامينه الاجتماعية .
عثرت هذه اللغة على شرطها الاول في الفن الكلاسيكي الفنية ، كما صرح « رولان بارت » في الدرجة الصفر من الكتابة ، حيث ان الاثر العبثي يقلد الحياة اليومية ، ولذا فهو اسلوب رتيب وثقيل أو حيادي كما هو واضح في رواية (الغريب) . ان الطبقة البرجوازية الصاعدة ، حين انتصرت على صعيدي الواقع والفكر ، ارست دعائم اسلوب ادبي لا يعبر عن مصالحها الطبقية حسب ، بل يؤول العالم باعتباره وحده كلية منطقية ترسم معالمه وحدوده العقلانية البرجوازية الظافرة . وكان ذلك الاسلوب هو الكلاسيكي «الذي استبعد كل رعشة وجدانية لحساب شكل فني ولغوي يصطفي ويتصالح مع اسطورة الانسان الخالد في ماهيته » أي البطل المنتخب !!

بيد ان هذه الصنعة الشكلية [الكتابة الحيادية البريئة التي ابتداها كامو وامثاله من كتاب العصر الامبريالي] ليست في خدمة ايديولوجية منتصرة ، وانما هي صيغة وضع جديد للكاتب : هي الصمت كنمط من انماط الوجود المأزوم وانعكاس لازمة الطبقة البرجوازية الافلة ، التي لم يعد هناك ثمة شبر واحد من هذه الارض لم تستنفد خيراته . فالشكل الادبي ، بعد ان فقد احكامه العقلاني في وضع طبقة صاعدة ومنتصرة يعود ليتحول على يد كامو مثلا ، الى شعر متفكك يصل حد الهذيان والتناقض ، بعد ان اخترقته العدمية التشاؤمية من الجلد الى العظم ، في وضع **طبقة مأزومة** على صعيد الواقع السياسي والايديولوجي والاخلاقي في آن واحد .

لقد انكفأت الكتابة البرجوازية في المرحلة اللاحقة من مراحل نمو وتطور البرجوازية ، المرحلة الامبريالية الراهنة ، الى نوع من الصيغ السلبية التي تبطل فيها الخصائص الاجتماعية او تتحول الى مجرد نمط عاد الى « اسرار اساطيره الشكلية ، لمصلحة حالة من الشكل تتسم بالحياد والعطالة » . وليست الكتابة الحيادية البيضاء هي اقل الكتابات امانة ، كما اعتقد بارت ، بل اكثرها خيانة لطبقتها البرجوازية وللطبقة البروليتارية الصاعدة على حد سواء . انها عملية غض نظر مخجلة عن حركة الواقع الاجتماعي والانساني ، وكأن ما يدور في هذا العالم لا يهم الذات الفردية الباحثة عن سعادتها الخاصة ضمن اطار وجود معطى سلفا وخال من الحيوات الاخر .

ان حيادية الكتابة والاهتمام الشكلي ، وهم خادع ، لانه في الحقيقة ليس الا صمتا . صمتا ازاء عالم منخور وآيل للسقوط ، وازاء عالم جديد تصنعه الجماهير الغفيرة



جواز مرور بهلوان

قصة : أحمد الشيخ



يقولون انه جاء الى المدينة عفوا ، وانه لم يكن ينوي في البداية سوى قراءة الفاتحة على قبر أمه .. عندما سألوه عن التاريخ الذى تسلل فيه الى قلب المدينة ، لاذ بصمت خجول آسف .. من يومها واحاديث الناس تدور عنه في ذات الاطار ، ويبدو ان افكارهم جميعا امست متشابهة .. فعندما يهم الواحد منهم بالحديث حول موضوعه الدائم يقاطعه الاخر مكملا بنفس الانفعال والحماس .

وعندما تاكد لاهل المدينة ان كلا منهم لايملك افكارا تخصه وانه يدور مع الاخرين فى نفس المدار .. عندما تاكد لديهم ان مايدور في الرؤوس مجرد تكرار لما يدورفي عقول الاخرين ..عاشوا ايام الملل الاخيرة .. كان احساس كل منهم بانه واضح ومكشوف بشكل يغيظ يطاردهم ويدفعهم لممارسة لعبتهم القديمة .. ورغم انهم يجهلون التاريخ الذى تغيرت فيه معالم الاشياء .. الا انهم يذكرون ملامح البهلوان العجوز الذي تسلل الى قلب المدينة في مساء معتم من امسيات شتاء بعيد .

حقيقة ان حارس الطريق كان قد ادى مهمته واوصاه بمراعاة النظام ..اشار الى طابور الوافدين الممدود ناصحا اياه بالوقوف في مؤخرته شارحا له ضرورة الحصول على جواز للمرور كانت الفكرة تحتاج الى وقت طويل . . ساعتها اخرج البهلوان العجوز لسانه وتابع المسير فى طرقات المدينة المفتوحة .. لم يكن للمدينة ابواب مقفلة ولم يكن لها سور بحيث بدت الفكرة سخيفة وبلهاء ... يومها قال لنفسه .

ــ جئت فقط لقراءة الفاتحة على روح امى .. ولو اتبعت هذه التعليمات فسوف اتجمد من البرد عندمدخل المدينــة .

كان الحديث يدور همسا في شوارع المدينة وازقتها حول جوازات المرور .. كان الناس يتبادلون الاتهامات في عصبية وانفعال .. وفى العيون نظرة متشابهة متحفزة .. كل منهـم كان يرمي الاخر بانه لايملك جوازا للمرور ويتسابقون لابراز اوراقهم الخاصة امام الخصوم في حماس بالغ .. رجال الحرس يبتسمون فى ود خالص لكل من يثبت انه اكثر محافظة على النظام واتباع التعليمات .. كثيرون كانوا يضمون القوانين ويستعرضون امام خصومهم قدرتهم على الحفظ والتكرار، كان واضحا ان العلاقة طيبة حتى ذلك الوقت بين حراس المدينة وسكانها الذين يحملون جميعا جوازات مرور مدموغة ومبصومة ..كانت اللافتات منتشرة في كل الاحياء والازقة .. تعلن ان نظام المدينة يفرض على ساكنيها والوافدين اليها حمل جواز مرور رسمي . كان الوصف الرهيب للجزاء يجعل الناس تتسابق للدفاع عن نفسها باخراج اوراقهم الخاصة .. ابتسم البهلوان لنفسه وهو يتخيل روحه في قلب الصندوق الفولاذي المودع فى وسط الزنزانة التي تقع في نهاية السرداب المسحور .. كان يتخيل نفسه في هـذا المكان الجهنمي ويحس بمدى الخطر الناجم عن عدم امتلاكه لجواز رسمي للمرور في مدينة كل ما فيها منظم وساكن ورتيب . . لكنه لم يفكر فى العودة ولم يرتجف بحيث لم يفكـر اى الناس في اتهامه .. وعندما شرع في البحث عن قبر امه واجهته بعض الصعاب .. لكنه كان خبيرا بشكل ملحوظ فى التخلص من كل المشاكل الصغيرة .

قال لنفسه ان السنوات التى عاشـها فى جزيرة الشيطان علمته الكثير .. كانت الجزيرة باسرها وكرا للجان والابالسة ... ورغم ذلك فقد استطاع ان يندمج معهم ويعمل في سفن الموت التى كانوا يجوبون بها البحار السبعة .. وبدت له هذه المدينة بسيطة بالنسبة لخبرة بحار قديم وافد من جزيرة الابالسة .

في واحد من الاحياء المتهالكة سمع البحار القديم قبل ان يتحول الى بهلوان حكاية المهرج الذى مات في ذات المساء المعتم من امسيات الشتاء .. قالوا انه سقط ميتا وسط حلقة الملعب الكبير .. اكدوا انه لم ينتحر وانما خانته شجاعته فاخفق في حفظ توازنه وهو يؤدي لعبته الخطرة والمحببة الى النفوس .

كان واضحا ان المدينة تبحث لنفسها عن مهـرج جديد .. ثرثروا كثيرا حول الوجه المامول بهلوان جرىء يغسل ماعلق في نفوس البعض من احزان متراكمة .. يبدد تلك النظرة المتجهة التي تتقلص بفعلها الملامح وتبدو رهيبة الاكتئاب .. خطواتهم كانت منظمة ورتيبة .. كأنها بندول ساعة لايتخطى حدودا بعينها ... الذىيسرع خطاه يتهم بالجنون والذي يتكاسل تدوسه النعال ..

قال البحار القديم قبل ان يتحـول الى بهلـوان رسمي .. ان آلام رجال المدينة تبدو مستحيلة العلاج .. ومن ثم فلن تجدى المحاولات التى يبذلها الاخصائيون في علاج الامراض النفسية . كان البحار العجوز قد اكتسب خبرات كثيرة فيترجمة الانات المبتورة والاهات الخافتة .. حين انعكست اصداء النبرات المحزونة الحائرة والانين الخافت الصادر من افواه الرجال والنسوة لم يعـد في حاجة الى مزيد من الوقت ليعرف مدى ما وصلت اليه المدينة من الارتباك والملل .

جرعات السأم كانت تتسرب الى اكواب المياه رغم الجهود التى بذلت لتخليص الانهار منها .. كان الهـواء نفسه يحمل الجرثومة .. اكد واحد من الخبراء ان الجو مشبع تماما بجرعات السأم .. كانمن العسير على الخبراء ان يتوصلوا الى حل سريع للمشكلة .. لكن البحارالعجوز كان انسانا رغم انه عاشر الابالسة عمرا ..

وفى لحظة من لحظات التفكير العميق تناسى البحار العجوز قبل ان يتحول الى بهلوان مهمته التى تسلل الى المدينة من اجلها .. نسى تماما انه جاء الى المدينة خلسة لانجاز عمل بعينه .. حقيقة انه لم ينس وجه امه الذي اقتاده ليدخل المدينة قبل ان يحصل حتى على جـواز للمرور .. لكنه فكر فى تاجيل الزيارة واعلن امام نفسه قراره الخطير .

ــ سوف اعمل على اضحاك المدينة المحزونة ..

في زقاق جانبي حالك السواد استطاع البحارالعجوز ان يصنع لوجهه قناعا لطيفا وطرطورا طويلا ملونا .. وراح يجرب بعض الالعاب التى علمها له اولاد الابالسة في جزيرة الشيطان .. وعندما اطمأن تماما الى مستواه .. اتجه ناحية الملعب الكبير .. لم يكن للملعب الكبير باب...

وعندما توسطه البحار القديم الذى تحول الى بهلوان يضع فوق جبهته طرطورا لطيفا .. انفجر الخلق فيضحكة مدوية مبسوطة لاول وهلة .. سخسخوا على روحهم لدى رؤيته .. كاد البعض ان يفطس من الضحك لولا ان البحار العجوز كان يتوقف للحظات عن عرض العابه ريثما يستنشق البعض انفاسه .

كانت هى المرة الاولى التي شعر فيها الخلق بنـوع من الدفء. ومن عجيب الامر ان البعضاكد على مسؤوليته الخاصة ان الشمس اشرقت فى ذلك الصباح ... كان البحار العجوز مسليا تماما .. مسليا لدرجة ان العيون راحت تركز نظراتها عليه في سعادة غامرة .. صفقوا له كثيرا .. لكنه لم ينحن لاحد .. كان معهودا لديهم ان المهرجين ينحنون ردا على التحية .. على الاقل كان يجب ان يودى لهم براسه .. لكنه كان بهلوانا فريدا مننوعه.. حقيقة ان السؤال دار في كل العقول .. لكن احـدا لم يستطع ان يصرح به علنا . كانت غطرسته واستخفافه نفسه اصبح اكثر نقاء . ولم تعد جرعات السأم تتسرب بالسؤال ، ارتضـوا بهمسات مسرورة منسجمة ودوت ضحكاتهم المبسوطة فى كل انحـاء المدينة .. ومن كل الاطراف وفدت جموع .. يشاهدون المعجزة الجـديدة التي استطاعت ان تزيل عن الوجوه تلك الكآبة البغيضـة وان تمسح احزان القلوب .

وخلال ذلك الشتاء والشتاء التالى تناقصتجرعات السأم بشكل ملحوظ .. بل ان الخبراء اكدوا ان الهواء نفسه اصبح اكثر نقاء . ولم تعد جرعات السأم تتسرب الى اكواب المياه .. بل ان الضحكات كانت تجلجل فى كل الاحياء .. حتى خطوات الخلق اصبح لها طابع اخر .. فهي سريعة ومتحمسة ومتفائلة .

كان البحار العجوز الذى اصبح بهلوانا يتمشىاحيانا في طرقات المدينة في ثيابه الرسمية .. ولكم قابلوه بالتهليل المبسوط .

ــ بهلواننا الحبيب الشجاع .. بهلواننا العجيب

كان الناس يتسابقون في سرد بعض الحكايات الغريبة عن المهرج الجديد .. ولكن طاب للبعض ان يضيف الى الحقيقة بعض الرتوش الطفيفة .. ليضفى على الصـورة مزيدا من الاهتمام ... كانت المناقشات تحتدم والاصوات تتعالى .. واصرار البعض على خداع الاخرين ومحاولة اقناعهم ببعض التفاصيل التى لم يكونوا على استعداد للاقتناع بها .. كل ذلك كان يشكل موضوعا متصلا ودائما للنقاش الطويل الحاد .

قال البعض المتحمس ان بشرة البهلـوان العجوز حالكة السواد والا لما أخفاها تحت القناع ، اضافوا انه هارب منمدينة لاتدخلها الدواب لانهاتستخدم ظهور السود حالكه السواد والا لما اخفاها تحت القناع اضافوا انههارب فى نقل البضائع والمتاع عند الاسنار .. نفى البعض الاخر تلك الفكرة واكد ان جلده فى لون الشمع الابيض .. صرح البعضخفية ان لون بشرتهاحمر او قرمزياوربمابنفسجي

نهارات تألق

قصة
موفق خضر



من خلال النافذة المطلة على فنـاء البيت ، كنت ابصر النهار مغمورا ببحيرة من الضوء الابيض . بدت الاشياء الاخرى بيضاء ، حتى الحيطان الممتلئة بنتوءات الجص والمحيطة بالفناء المربع ، كانت تسـيل مع النهار الابيض كما لو انها طليت به طلاء مظللا بالنتـوءات .. كنت ابصر حبل الفسيل ممتدا عبر الفناء ، متدليابانحناءة مقوسة صغيرة نحو الاسفل وساكنا مثل ارجوحة وديعة ساكنة . ظل الصمت مرينا ثمة والضياء الذي تفرشـه الشمس في النهار يفيض وتزداد الاشياء جميعهـا تألقا ونصـاعة .

لعلها ما تزال هناك ، في المطبخ ، تتحـرك حركـة مستوفزة موصولة بعداء سري غاشم ، وبين الحين والحين اسـمع طرطشة الماء وهـو يسـاقط من الحنفية الى الحوض الكونكريتي الآسـن واللزج ، وتقرقع الصحون بشـدة وعصبية فاضحة ، كانت هي تصمت فى المطبخ ولا يتناهى الي غير ديب خطواتها ، وكنت افكر انهـا ستبقى ترسـم في مخيلتي صـورة لا مبالاتها الحرون لكل ما يدور حولها ولكل ما يحتويه البيت حتى ليمتد ذلك اليَّ ساحقا تفكيري بشكل معذب وجنوني .. كانت – لدى عودتى من الخارج متعبا وخاويا من ايمـا معنى – تتعمد ان تلزم حدود المطبخ اطول ما تستطيعه من وقت ، طارحة نفسها كمخلوقة متوحدة ونافرة ومسـتوفزة ، وكنت عندئذ اجدها – في حدود تخيلي المعذب – بعيدة عني ومستلبة من يدي .

ابتعدت عن النافذة ، بينما ظلت مسـاقط النور تنث كسيل الفضة في الفناء وعلى الحيطان المجصصة التي اواجهها عبر النافذة .. تعمدت ان ادور في زوايا البيت باحثا عن لا شـي . وراودتني الفكرة فى ان اكون فى المطبخ الى جوارها ، غير انني احسست بمقدار كبير من الازدراء بجناحني حتى الاعماق . وكان الشـعور بذلك يكبر في نفسـي تدريجيا حتى ليتحـول فى صـدري فجأة الى مكبوتات من الغضب العارم .

ناديت بعدئذ باعلى ما استطيع من صوت ــ الم ينته كل شيء ؟

تعمّدت هي ان تصمت ، وخيل اليّ انها ستجيب لا محالة ، وكنت اريد بشوق ان تنتهي من ضوضاء المطبخ وجلبته وان تكف عن ذلك الى الابد . فقد كان الضوء فى نهار الفناء رائعا وعظيما ، وكانت الجلبة المستوفزة هناك تبعثر جزءا من احزمة الضوء التي تتسرب الى قلبي كالليونة المشتهاة .

ناديت بأعلى من ذي قبل ــ ارجوك .. الم ينته كل شيء ؟

جاءني صوتها وانيا ــ الا تريد ان تأكل ؟

ــ اللعنة على الاكل .. توقفي عن كل ذلك بسرعة ..
ــ سأنتهي قريبا .. لماذا جئت مبكرا عن الوقت ؟
ــ ليس لديّ عمل هناك .
ــ الم تلتق بهم هذا الصباح ؟
ــ التقيت ببعضهم ، وليس هناك شيء يذكر .. ليست هنالك اخبار جديدة ..
ــ الم تتحدث اليهم مرة اخرى عن علاج يدك ؟
ــ ليس هذا بالامر المهم
ــ ولكنك ستبقى هكذا زمنا طويلا ، ولن تشفى ..
ــ قلت لك ان هذا ليس بالامر المهم ..

ولم تقل شيئا ولم تعقب .. كانت تصمت فجأة كالحجارة المرمية على الدرب ، وكنت اتخيل وجهها عندئذ معتكرا بالامبالاة كعادتها فقد عدت اليها من الجبهة قبل شهور عدة ... عندما عدت من الجبهة كان كل شيء قد انتهى تماما بعد ان امضيت مدة عسيرة من الزمن في المستشفى العسكري حيث تم تشكيل جسدي بالشكل النهائي .. وفي طريق العودة الى البيت كان الطريق نفسه مزروعا على جانبيه بالكوابيس التي يأتي بها الالم المبرح والمرارة التي خلفتها في الروح آثار المعارك على امتداد الجبهات ، والشاحنة التي نقلتني من هناك ، ظلت تقطع المسافات الطويلة غير مبالية بى ، وصوت عجلاتها على الاسفلت يئز بتجرد واستقلالية باردة ، وكنت انا مرميا على ارضية الشاحنة اطوف مع الكوابيس واحلم بالوطن وبوجهها يتحدر مع خطوط الذاكرة المتعبة والمثقلة بصور البشاعة والموت .. شهقت هي فى الساعة التي وضعت بها قدميّ على مدخل الدار وتمتمت من بين شفتيها بكلمات لم اتبينها ، واقبلت نحوي مختصرة المسافة بيني وبينها كخطفة شهاب ، غير انها ماكادت تصبح على مبعدة رعشة من ذراع دفيء حتى شهقت مرة إخرى وظلت منذهلة تحدق فحسب ، ثم تهاوت بجسدها عليّ ونشجت بحرقة مريرة وكأن راسها ينوس وشعرها يتناثر امواجا فوق كتلة الجسد المتكوم عند قدمي .

* * *

في الجبهات ، وعلى طول الخنادق التي حفرناها والمتاريس التي اقيمت عند المشارف وعلى بدايات الطرق اللاحقة بالنزيف وعلى ارتفاعات الجبال المطوقة ، كانت السماء ملطخة بالدخان والرصاص والدوي .. وفي النهار الجحيمي الذي زحفت فيه مع ثلاثة من الرفاق ، كانت اصابعنا تعانق الرشاشات بوله ، واعيننا تستفيق بجنونها على القدس ، وتمتد حتى السواحل التي يدغدغها البحر العاشق .. كانت الارض رطبة من تحتنا وناعمة ومليئة بحنان بالغ وكانت تستجيب لنا بليونة وطراوة ، اذ يترك زحفنا فوقها آثارا بشرية مخططة بمتوازيات معتكرة بحشائش واحجار وصخور صغيرة متناثرة .. اصابعي تشد على الرشاشة ، والرفاق الثلاثة معي ، تختلط انفاسنا وتتعانق في لهاث الجهد المصوب نحو الخندق الذي يقبع فيه بقية المقاتلين .. الحياة من حولنا تتناثر على صورة رصاص واصوات مدافع وطنين طائرات خفية بعيدة عن العين ، والقدس فى حبة العين تراودنا مثلما يخيم الموت قريبا منا ونحن نزحف ونزحف .

سأل محمود وهو يلهث خلفي ــ أترانا بلغنا الخندق ؟

لم اجبه . كانت عيناي عند موقع الخندق لا تريمان ، غير اني سمعت صوت « ابي خالد » ــ لم تبق الا زحفة واحدة .. من هناك سنبدأ ..

ومن وراء المتراس كانت اصابعنا تثوتر على الزناد وتضغط وتضغط حتى يعلو الصوت الآسر على كل ما عداه. كانت النار مصوبة بدقة والمرمى ازاءنا يبين بوضوح ، وكان الفرح يطفى في صدورنا حتى في لحظات النار وهي تلتهب الى الجهة المضادة، كان فرحا كاسحا وعجيبا وغير اعتيادي، كان جسد الرشاشة يتنفس معي في الخندق . كان جسدا يستقر بين كفى كجسد امراة محبوبة وعاشقة . وفكرت ان جسد الرشاشة يتعطش الى رصاصات اخرى املأ بها مخزن الطلقات .. فجأة مزقت اصابعي الوالهة سبع رصاصات مضادة ثم توالت الرصاصات مبتدئة من منتصف الكتف اليمنى .. انطرحت على الارض وابصرت دمي يختلط بتراب الخندق ، وانتفضت الرشاشة واستقرت بجانبي بصمت. كنت قد بدأت استند الى جدار الخندق، وابصرت عيون الرفاق تتجه الي بقلق . آثرت ان احرك جسدي حيث استندت محاولا صرف انظارهم ــ اولئك الرفاق) عني ، ولذلك بدأت المحاولة الهالكة للعودة الى موقعي الاول فى الخندق ، غير انى عندما كنت احتضن الرشاشة بكفي اليسرى التي بقيت لى كانت رصاصات أخرى تمزقنى فى جهة الكف حتى موضع الرسغ .. انقلبت اعض تراب الخندق واغرق واغرق حتى تهدل مني الجسد المضنى والمثقل بالحلم والموت ثم لم اعد أشعر بشيء البتة .

حينما افقت في المستشفى ، كانت الذراع اليمنى قد بترت تماما بينما ظلت اليد اليسرى مقطوعة من الاصابع . وظل السؤال يتردد في ذاكرتي وانا اهذي تحت تأثير البتر والتقطيع والالم : ترى ما هو الحد الفاصل بين الموت والحياة ؟ انه اللاشيء ، وانه اللاشيء ، ذلك الحد الذي يفصل بين الموت والحياة ..

* * *

لم اعد استطيع ان افعل شيئا بيدي اليسرى العارية من الاصابع ، كما لم اعد استطيع فعل شيء بالذراع اليمنى التي بترت من الكتف .. وبهذه الصورة الآدمية التقيت بزوجتي عند مدخل الدار . وحينما تهاوت من الذعر والالم والبكاء ونشجت بحرقة عند تنهض هي او ان تساعدني على تمضية بقية ايامي برضى وقناعة ترفض التسليم بالضعف والموت الابدي .. وفي البدء ظلت منذهلة فترة من الزمن كنت انتظر بعدها ان تفيء اليَّ لتشد من عزم ايامي التي بدت انها ستدخل في مسارب من الفراغ واللاشيء .. وقد احسست فى فترة من الزمان انها تعود اليَّ فعلا وقد طفح في قلبها الامل في ان نبدأ معا من جديد وبالهيئة التي تشكل بها جسدي، غير انها ارتضت ان تنتكس في وهدة اليأس والملل لتجرني اليها باصرار عنيد ولامبال .. وهكذا بدات لامبالاتهاتملأني غضبا صامتا ، ومنذ مدة بدات ثانية تقنعني يصنع اطراف جديدة لاكون نافعا ، غير انني كنت اؤجل التفكير فى هذا الموضوع واتعمد اهماله طالما انها تسعى من ورائه الى صنعي ثانية على هيئة مزورة ارفضها .. ارفضها ارفضها . وبدانا نتباعد كطرفي المغناطيس ، وفي اغلب الاحيان ظلت تتعمد اهمالي حتى في مسائل صميمية وعادلة وجميلة ، بل كنت ارى احيانا اخرى صورة اللامبالاة الباردة وهي تقدم الىَّ الاشياء وتتركها عامدة حيث اعجز تماما عن ادراكها والوصول اليها حد الانخذال والقهر .. وقد يكون بقاؤها المتعمد فى المطبخ عندما اعود من الخارج متعبا وخاويا من ايما شيء جميل ومواس — ايماءة لي بالعذاب الذي تسقيني اياه بالصمت واللامبالاة وبالطعام الذي لا استطيع تناوله الا بمشقة عاتية .. فكرت ذات مرة ان اخرج على طوق وجودها معي وذلك بان اختار الهجرة والسفر . ولكن الى اين يستقر بيمقام الرحيل عندئذ وقد اضحيتعاجزا عناحتواء اقرب الناس الي ؟ كانت تشلني عن ان انمو من جديد وتستمر فى اعتبارى مسببا لعذاباتها الموصولة في الحياة .

* * *

الفاصل بيني وبينها الان نهار كامل من الضوء ، انغمر فيه فيما يشبه الانعتاق والصحو واليقظة ..بدات اجدني منفصلا عنها بمقدارماينفرش هذا الضوء على مساحات واسعة لايحدها البصر .. في هذه اللحظة انثنيت ادور مرة اخرى في زوايا البيت ولكن دون ان اواجهها.. اقتربت من النافذة المطلة على الفناء .. هذه زاويتي التي اطل منها على العالم .. هناك فقط كان الصمت العذب والباعث على انسياب الافكار فى وقت خاو من العمل .. شعرت انها غادرت المطبخ ، اذ بدأ الصمت يشمل انحاء البيت تماما .. كانت قد وضعت الطعام فى المكان الذي اعرفه . هكذا تعاملني منذ زمن وتدعني اواجه عجزي دون معين .. حملت طعامي بيدي وخرجت الى بحيرة الضياء في النهار المتألق الذي كان يتضاعف تألقا في الفناء الخارجي للبيت والذي يقع خلفه بالضبط .. هناك وحدى انا ، ودائما ، كنت احاول ان اتناول طعامي بعيدا عن مراقبتها لي أو بعيدا عن الحاجة اليها في ان تمد الي يد العون .. ومنذ عدت من الجبهة ، لم اعد استطيع تناول طعامي دون ان احدث الفوضى فى المكان الذي اقبع فيه للاكل ، فيدى اليسرى هي اليد الوحيدة العاجزة لانها مبتورة الاصابع ، واليد الاخرى مبتورة من الكتف ، فماذا بقي لي اذن ؟ وفى هذا اليوم نفسه سيحدث نفس الشيء الذي حدث مثله بالامس او قبله .. فتات الأكل وحبات الرز وانسكاب المرق والفوضى التي تسببها محاولاتي لاكون طبيعيا كما كنت قبل الاصابة .

حينما عدت الى الداخل ، بعد ان انتهيت من المهمة الصعبة ، كنت ابصر البقعة مفروشة بالفتات ، وكنتاعجز تماما عن تنظيفها ، وكم تمنيت ان اقوم بذلك حتى لاتقع عيناها على كل القذارات التي تخلفها اوضاعيالشاذة ... في الداخل كان نفس الصمت الذي توحيه الي لكي تبقى بعيدة عني حتى في حدود المسائل التي تهمنا كلينا .. لم ابال بذلك بل قررت أن أعود الى الفناء الغارق بالضياء ، أو أقف عند النافذة لتأمل الاشياء النظيفة وحديولاراقب النهار وهو يمضي رائما وناصعا .. وبازاء النافذة ،ابصرت في البدء اعدادا قليلة من العصافير تهبط حذرة وخائفة على المشى اكلونكريتي الذى فى الفناء وتقترب شيئا فشيئا من الفتات .. خمدت حركاتي وراء النافذة وتوقعت منظرا اكثر روعة فى هذه الظهيرة السابحة في النهار المتألق . تتابعت اعداد اخرى من العصافير وراحت تقترب بشجاعة من البقعة الملاى بفتات الاكل والرز الساقط والمتسخ، ثم تتجمعمتحدةفي حركةورفيفواحد.. وفكرت انني كان بمستطاعي ان انثر مزيدا من الفتات بل ان انثر طعامي كله من اجل ان تأتي العصافير كلها لتجتمع حوله وتتحد بهذهالصورة التي أتوغل فيهامنتشيا وراضيا ومنشغلا عن التفاهات الاخرى التي تجرى هناك .

ابتسمت وانا بازاء النافذة ، وفكرت انني في الغد سأكون مجديا ونافعا ، وانني تدريجيا اتحول الى رجل جديد ، اذ سأرمي بالطعام كله في الفناء وسأشهد مزيدا من اعداد العصافير الجائعة والمنتشية مثلي فى النهار السابح بالضوء الابيض الغمير .

زمن مدينة الحواجز

قصة : احمد ممو

نكون جماعة ونكون في مقهى ويكون المقهى في مدينة وتكون المدينة في بلد ويكون البلد في العالم الثالث ونكون نتحدث عن تحويل الطائرات وعن البطولة فوق الشاشة وعن الجنس وعن الحضارة التى تحطم المعنى فى اعماقنا وعن الثورة في العالم الثالث ويتكرر ذلك دائما وتكبر الجماعة وتنتهي كلماتنا بالصمت . وكان هناك دائما من ينتهى الى ان الماضي يثقل افكارنا وافكارنا تثقل واقعنا وواقعنا يثقل وجودنا في المقهى وكان وجودنا في المقهى ينتهي الى ان الماضي يثقل افكارنا وافكارنا تثقل واقعنا وواقعنا يثقل وجودنا فى المقهى وكان وجودنا فى المقهى ينتهى دوما الى الشعور باننا مجرد حشرات نأكل الكثير ونتكلم الكثير وندخن الكثير ولا نتوصل الى صنع اي شيء سوى التفكير في شيء ما يحاول كل منا ان يحتفظ به لنفسه

... نكون جماعة ونكون نتحدث عن البطولة وعن الهيمي وعن « البوب » وعن الثورة والجنس ثم يحتفظ كل منا باشيائه التى لا يريد أن يقولها وندفع ثمن الاشياء التي شربنا معها وتفيبنا شوارع المدينة وازقتها ويكون ذلك يعني ان ذلك المساء يقع في نهاية الاسبوع واننا في نهاية الاسبوع الاخر سنلتقي بنفس الشكل وقد نفترق بنفس الشكل ...

يكون هناك منا من يقول : « سأكون حزبا سياسيا .! » . ونكون نعلم انه يقول ذلك لمجرد ان يحلم لانه يحلم دائما عندما يتحدث وعندما يدخن وعندما ينتابه الضجر .

يكون دائما هناك من يقول : « انتم لا تسبون النظام امام الشعب لانكم جبناء ..! » ونضحك ويضحك هو ونكون نعلم انه هو ايضا لا يسبه ويكون ذلك يعني انه في حاجة الى الحديث عن دور الانسان المثقف في العالم الثالث ونتركه يتحدث لكي ينتهي الى الصمت ويبقى يحدق في شيء ما وراء زجاج المقهى .. ونكون ننصت وندخن وننظر عبر الزجاج ثم يتكلم آخر وينظر وينظر الاخرون عبر الزجاج ثم يتكلم اخر وينظر البقية عبر الزجاج ثم نسكت جميعا ونبقى ننظر عبر الزجاج ويكون ذلك يعني ان كلا منا يفكر في اشيائه التي لا يريد ان يقولها للاخرين ثم نفترق وتفيبنا شوارع المدينة وازقتها ويكون ذلك يعنى ان غدا سيكون مثل الذى بعده واننا سنلتقى في نهاية الاسبوع بنفس الكلمات بنفس الملامح وباشياء اخرى يحتفظ بها كل منا لنفسه ..

يحدث ذلك دون ان نكشف انه هناك شيء اسمه الزمن ..

... ثم نلتقي ونجلس ونشعل سجائرنا ويمسح صبي المقهى الطاولة وزجاج المقهى لانه يعلم اننا نهوى النظر عبره ويمسح احدنا نظارتيه ويمسح الاخر صوته ويقول : « سأكون حزبا سياسيا ..! » . ويتحدث ويكون ينظر الى وجوه الاخرين التى تنظر اليه عبر الزجاج ويقول كل كلماته التى هو في حاجة الى ان يقولها ويصمت لكي ينظر عبر الزجاج كما يفعل الاخرون . واجد الكلمات تتحرك على لساني واقول : « سأتحول الى هيبى .! ... وضعية اقل قتلا للانسان من هذه ..!». ويكون الاخرون يعلمون اني فى حاجة الى الحديث عن جدي وعن اسطورته التي تتحدث عن ذلك الولي الذي يقع ضريحه خارج المدينة . ويتركنى الاخرون اتحدث وعندما تنتهي كلماتي اصمت مثل الاخرين وانظر الى شيء ما وراء الزجاج . ويفتح احدهم فمه ويقول : « سأنتحر » ونكون نعلم انه لن يفعل ذلك لانه لم يكن يقول شيئا اخر غير تلك

الجملة .. ثم .. يتخاصم كل منا مع الاخر ويشتم كل منا الاخر .. ثم نجلس وننظر الى العالم والى وجوهنا عبر الزجاج ويكون كل منا يفكر في الكلمات التي لم يقلها .. ثم نتحدث جميعا عن الجنس وعن البطولة وعن الهيبي والبوب وعن الثورة في العالم الثالث وعن الماضي الذي يثقل افكارنا ... ثم يدركنا الزمن ونقرر ان نفترق .. ويأتي صبي المقهى ويمس الزجاج ويمسح نظارتي احدنا وندفع له .. ونقرر ان تغيبنا شوارع المدينة وازقتها ويبقى صبي المقهى منتصبا امامنا بطبقة الابيض وبثيابه وبابتسامته الصفراء ويكون يمسح صوته مرات متعددة ويحاول ان يضع على لسانه الكثير من العبارات الرقيقة وفي النهاية تنبطح كلماته على الطاولة ويقول انه آسف جدا لانه لا يستطيع ان يفتح لنا الباب الامامي وانه مستعد لكي يمسح امامنا الطريق الاخر وانه متأسف اكثر لان الطريق الاخر يعلوه الغبار ولانه مجرد باب خلفي ينفتح الى فوق ولا يمكن ان ينفتح الا الى حد ما وانه متأسف كثيرا لاننا سنضطر الى الانحناء ..

وانه لا يستطيع الا ان يتقلص تحت تأثير الاسف لان احذيتنا ستكون مجبرة على السير في المياه القذرة لكي تجتاز الباب الخلفي الذي يعلوه الغبار الذي لاينفتح الا الى فوق والذى لا ينفتح الا بمقدار والذى لا يسمح بالمرور لاكثر من واحد ..

نقف جميعا ننظر الى صبي المقهى ويكون هو يبتسم بثيابه البيضاء وبطبقه الابيض ويصيح احدنا : « نحن لا نسب النظام لاننا جبناء ولكن يجب ان نسب صبي المقهى .. » ويقول الاخر : « اننا لسنا في حزب سياسي لكي يقع اغتيالنا بهذا الشكل .. » واكون افكر ان جدي عندما كان يتحدث عن هذه المدينة كان يتحدث عن ذلك الولي الصالح الذي سيأتي في يوم ما بجبة خضراء وبرنس اخضر على فرس بيضاء لكي يعيد لهذه المدينة توازنها ... ونكون في النهاية نتكلم جميعا ويحاول كل منا ان يرفع صوته فوق اصوات الاخرين ويكون الصبي يحاول ان يرفع صوته فوق اصواتنا جميعا لكي يفهمنا اننا في هذا الوضع الذي يتأسف فيه كثيرا لا يستطيع ان يتصرف الا بذلك الشكل . ويكون احدنا قد رفع راسه ورفع صوته الى الحد الذي بدا ينافس به راس صبي المقهى وصوته ..

وتكون عيناه قد احمرتا الى الحد الذي لايستطيع ان يكون فيه الا غاضبا جدا وتكون عيناه قد اقتربتا من عيني صبي المقهى الى الحد الذى يكون فيه مجبرا على تحريك يديه بنفس الشكل الذى كان يحرك به لسانه وحاجبيه ويكون في ذلك الوضع مجبرا على امساك صبي المقهى من ثيابه ومسح الارض به ..

لذلك كان صبي المقهى ملقى على الارض ويكرر انه متأسف جدا جدا لانه لا يستطيع ان يفتح لنا الباب الامامي . ويجلس ذلك الذى كانت عيناه قد احمرتا قبل عيني غيره لكي يستمع الى لهاثه وينظر الى وجهه في الزجاج ويقوم اخر احمرت عيناه الى الحد الذي ارتفع فيه الغضب لكي يمسك صبي المقهى من جديد يمسح به الارض من جديد ويكون صبي المقهى يحاول ان يقعى على مؤخرته ويديه لكي جدا لانه لا يستطيع ان يتصرف معنا الا بذلك الشكل

... وفي النهاية نكون جميعا قد جلسنا نلهث ونستمع الى انفاسنا وننظر الى وجوهنا في الزجاج المظلم ويكون صبي المقهى يحاول ان يقعى على مؤخرته ويديه لكي يقول لنا انه متأسف جدا لانه لا يستطيع ان يقول لنا الا الواقع الذى لا نقبله ببساطة وهو انه لا يستطيع ان يفتح لنا الباب الامامي وانه يكون مسرورا جدا واكثر من جدا بان يفتح لنا الباب الخلفي .. نكون جميعا نحاول ان نقف ونحاول ان نبحث عن مناديلنا ونحاول ان نمسح العرق الذى على وجوهنا ويكون هناك من لم يزل يلهث بصوت مزعج .. يحاول الصبي ان يبحث عن نشافته . لكى يمسح الطاولة والزجاج ونظارتي احدنا وجباهنا ثم يحاول ان يستقيم لكي ينحني من جديد لكي يقول انه مسرور جدا بان يتقدمنا لكي يرينا الطريق الى الباب الخلفي .. ونكون صفا واحدا وراءه نزحف في اتجاه الباب الخلفي ويكون الباب يغيب وراء ركن من اركان المقهى ونكون نتحرك ببطء لان صبي المقهى كان يتحرك ببطء يمد احدنا يده لكي يمسكه من ثيابه التي لم تعد بيضاء لكي يساعده على الانتصاب ويضع صبي المقهى ابتسامته على شفتيه ويقول انه بخير وانه متأسف جا لانه لا يستطيع ان يسرع اكثر ويمد الاخر يده لكي يساعد ذلك الجسد على التوازن ويكون جسد صبي المقهى معلقا بين جسدين لاهثين عندما يكون متأسفا جدا لانه يسبب له كل ذلك التعب ولانه لا يستطيع ان يفتح لنا الباب الامامي . ويجر صبي المقهى جسده معلقا من يديه لكي ينزل الدرجات القليلة التي تنتهى عند الباب الخلفي يقول انه متأسف جدا لانه لا يستطيع ان يفتح لنا الباب الا بالتناوب ونكون قد تعبنا الى الحد الذي لا نستطيع ان نفكر فيه ان مثل تلك الاشياء يمكن ان تناقش لذلك يجلس كل منا على درجة ويحاول صبي المقهى ان ينتصب ويكون الباب حديديا صدئا ومنطويا على ما وراءه ويفتح الى أعلى .. يبحث صبي المقهى في جيوب ثيابه التى كانت بيضاء عن مفتاح ما يحركه في الباب ثم نسمع صوت الباب وهو ينطوى على نفسه ثم نشاهد جسد صبي المقهى وهو يرتفع مع الباب وهو يقول انه اسف جدا لانه يعاملنا بتلك الطريقة وانه يجب ان يتقدم احدنا لكي ينصرف قبل غيره ....

وقبل ان يكون ذلك الذي سينصرف قبل غيره قد تقدم يكون صبي المقهى آسفا جدا لان احذيتنا قد اتسخت ولانه يجب ان نحذر السقوط .. ويكون احدنا قد تقدم من صبي المقهى ببقية لهاث فى حلقة لكي يغيب في الظلام ونكون لم نتفطن الى اننا على درجات متسخة كثيرا والى اننا فقدنا شهية شتم صبي المقهى ويكون هو قد وجد الوضعية التى ينتصب بها ظهره دون ان يؤلمه ووجد ابتسامته الصفراء ووجد نشافته لكي يمررها على وجوهنا وعلى ملابسنا المتسخة ووجد انه متأسف جدا لانه لا يستطيع ان يستعمل طريقة اخرى لاصلاح حللنا .. تكون موءخرة كل منا قد بردت الى الحد الذي نفقد فيه الرغبة في الكلام ونبقى ننظر الى صبي المقهى الذي كان ينظر الى ساعته ويكون كل منا يفكر في اشيائه التى لم يقلها للاخرين .

فتحت باب غرفة جدي فوجدته ينصت الى مذياعه الصغير وينظر الى الفراغ ويفكر وكنت أعلم انه لا ينام أثناء الليل وكان دائما يفكر في الاشياء التي لم يفكر فيها من قبل ، كان يضع يديه على صدره ويرين كثير من الهدوء على ملامحه . سألته هل هو بخير فنظر الي وقال انه ما زال يأكل القوت وينتظر الموت سألته الم تكن هناك شرطة واضواء فى الشوارع ولافتات على الجدران فقال ان الشرطة لا تكون الا في المدن التي يخشى فيها حكامها على أنفسهم أما هذه المدينة فقد كانت في ذلك العهد بكثير من قطاع الطرق وبكثير من الطمانينة وكانت للمدينة حياتها بالليل وكانت لها حياتها بالنهار وكان الناس يتحاشون دائما الحديث عن الاشياء التى تقع بالليل اثناء النهار لذلك كانت المدينة تعيش الطمأنينة . سألته ماذا يحدث عندما يفكر شخص في تكوين حزب سياسي . قال جدى انه في ذلك العهد لم يكن هناك من يفكر في تكوين حزب سياسي لان المقاهي لم تكن قد وجدت بعد بل كان هناك ضريح سيدي عبدالقادر الذي يقع خارج المدينة وهناك كانوا يتحدثون عن ذلك الولي الذي سيأتي في يوم ما راكبا فرسا بيضاء بجبته الخضراء وبرنسه الاخضر لكي يعيد للاشياء توازنها . وكان جدى في حاجة لكى يتحدث عن اسطورة المدينة ذات الاحياء المتعددة والحواجز المتعددة والزمن الذي ضاع بين حواجزها والتدخل الذي حدث بعد ذلك . سألت جدى ماذا يحدث عندما تصبح المدينة مجرد اعين فى الظلام . قال ان ذلك من علامات ظهور سيدي « عبدالقادر » وان النبوة ستحقق .

ويكون قد جاء يوم اخر من اسبوع اخر ويكون ذلك الليل قد انتهى بشكل ما وتكون المدينة قد ضيعتنا اسبوعا لكي تجمعنا في نهايته في مقهى في ركن منه وراء زجاج مظلم . وتمتد الطرق التى تقودنا الى ذلك الركن من ذلك المقهى اسبوعا وتمتد افكارا ونكون هناك حيث ذلك الصبي الذي يحمل طبقه وابتسامته والكثير من تأسفه وحيث ذلك الزجاج الذى يحجب اشياء ويبرز اخرى وحيث تلك الافكار التى يحملها كل منا في رأسه ويحتفظ بها لنفسه .. ويكون كل منا يحس اننا في حاجة الى ان نلتقى هناك ونجلس خلف ذلك الزجاج وندخن وننظر الى الاشياء عبر الزجاج ونتكلم البطولة «والهيبي» و « البوب » والجنس والماضي والثورة لكي نصل في النهاية الى ان العالم في حاجة الى هياكل جديدة ثم لكي نبدأ فى شتم بعضنا ... هكذا نكون قد التقينا وبدانا نخرج الكلمات من الاماكن التى تحتلها من اجسادنا ونلاحظ جميعا ان الذى كان يتحدث عن تكوين حزب سياسي قد اختفى ويقول صبي المقهى انه متأسف جدا لانه لا يستطيع ان يرشدنا لانه لم يره ونكون قد تحدثنا عن البطولة وعن «الهيبي» وعن « البوب » وعن الجنس وعن الثورة وعن الابعاد التى يمكن ان تمتد داخل الانسان لكي تبني العالم وعن تلك التى تمتد خارجه لكي تهدم العالم ونكون في حاجة الى مسح ذلك الضباب الذي تجمع على الزجاج لاننا في حاجة الى مسح ذلك الضباب الذي تجمع على الزجاج لاننا في حاجة الى النظر الى تلك الاشياء التى فى افكارنا ويأتى صبي المقهى بابتسامته الجديدة وبنشافته القديمة ويمسح الزجاج ونكون قد بدانا نتثاءب ويفتح احدنا فمه لكي يقول انه يفكر في تكوين حزب سياسي ويفتح الاخر فمه لكي يقول له انه بغل ويسكت كل منهما لكي ينظر الى وجهه والى الاخرين في الزجاج وافتح فمي لكي اتحدث عن تلك الاسطورة التى يتحدث بها جدى والتى تتحدث عن فارس ما يركب فرسا بيضاء بجبة خضراء وببرنس يأتى لكى يعيد للمدينة توازنها ويفتح الاخر فمه لكي يقول اني بغل ثم نسكت معاونبقى نحدق في الزجاج وفي الاشياء التى فى افكارنا وفتح الاخر فمه ليقول بكثير من التصميم انه يفكر جديا في تكوين حزب سياسى تقال فيه تلك الاشياء التى تحدث ليلا والتى يتحاشى الاخرون عنها نهارا ..

فتحت فمي وقلت اني في يوم ما سأنطلق اسيح في الارض لكى اتفرج على الاشخاص والاشياء وكنت افكر في المدينة عندما تكون ليلا وعندما تكون مظلمة وعندما تكثر العيون وسط ظلام ليلها في المنعطفات وعندما يكون الوصول الى حينا يتطلب مني المرور بكل تلك الحواجز التى تفصل الاحياء عن بعضها وفتح الاخر فمه لكى يقول ان الحزب السياسى الذى سيكونه سيبدا بازالة الحواجز بين احياء المدينة . قال له الاخر انه اغبى من حذائه . قال اننا اغبياء بشكل لا يطاق لكي لا نفهم انه هناك شيء اسمه الزمن وانه يصرف على حسابنا . شتمه كل منا على موجته الخاصة . بقي يهز رأسه وينظر الينا في الزجاج ويقول اننا نؤكد له اننا

اغبياء . امسك احدنا بخناقه لكنه بقي ينظر الى الزجاج امامه ويؤكد له انه غبي بشكل مزعج . ضغط الاخر على عنقه الى ان خرجت عيناه الى مستوى انفه وتدلى لسانه ولم يتوصل الى ان يقول له انه غبي جدا جدا .. تعب الاخر من الضغط وتركه يتنفس وبنفس التصميم وبكثير من الرصانة قال انه سيكون ذلك الحزب السياسى وعاد الاخر الى خنقه بكثير من الغضب على وجهه ولم يتوصل الى اكثر من اخراج عينيه ولسانه وكثير من الزبد من فمه وعندما ترك عنقه اعاد بنفس التصميم انه يفكر فى تكوين حزب سياسى ... وعندما لم تمتد يد الى عنقه واصل : « انتم جبناء لانكم لا تسبون النظام امام الشعب ..! » . وتجمعت الايدى حول رقبته .

ولم تتوصل الى اخراج أي شيء من جسده غير العرق والزبد وكان صبى المقهى واقفا هناك بثيابه البيضاء وابتسامته الصفراء ونشافته التى يمسح بها العرق من فوق الايدي ومن فوق الوجوه المحتقنة ويقول انه متأسف جدا لان الضباب يتجمع بسرعة فوق الزجاج ولا يسمح لنا برؤية اشياء كثيرة وكان الآخر يمسح الزبد الذى على صدره بيده والعرق الذى على وجهه بيده الاخرى ويبحث عن كلماته لكى يقول انه مصمم جدا على تكوين حزب سياسى ... وبقينا نحدق في الزجاج وكان صبي المقهى مازال يمسح العرق بنشافته وكان الليل يتقدم ... وتركنا صبي المقهى نلهث وانصرف لكى يمسح نشافته ولكى يبدل ابتسامته .. بابتسامة جديدة جدا لكى يقول انه متأسف لانه لا يستطيع ان يفتح لنا الباب الامامى وشتمه كل منا على موجته الخاصة وكنا قد فقدنا الرغبة في الحركة.

وقف صبي المقهى ينظر الينا بابتسامته العريضة الصفراء وقال اننا نبدو متفهمين جدا لوضعنا ولوضعه واننا تعلمنا ان نفكر في الاشياء بكثير من الرصانة وانه مسرور جدا بان يفتح لنا الباب الخلفى ... ولم نكن نتكلم ولم يكن احد منا يرغب فى الحركة وكان كل منا ينظر الى شيء ما وراء الزجاج فى افكاره وكان ذلك الذى يفكر في تكوين حزب سياسي قد اقعى على مؤخرته مستندا الى يديه يحاول ان يرسم على وجهه ابتسامة مماثلة لتلك التي كانت على ملامح صبي المقهى .. وتقدم منه الصبي بتلك الابتسامة التي ازدادت اتساعا وقال له انه شخص عملي جدا لذلك يمكن التفاهم معه وقال له انه يعتذر جدا لانه لا يملك وسيلة اخرى لمساعدته الا دفعه وقال انه لابد ان يكون متفهما جدا لكى يقدر موقفه جيدا هو الشخص الذي لم يتعلم رفع الاثقال وقال انه آسف جدا لانه لا يستطيع اعانته الا بذلك الشكل .. وكان يدفعه امامه على الارض والاخر ملتفت الى الزجاج يزرع ابتسامته عليه الى ان غابت صورته وصورة الصبي وراءه خلف الباب الذي انغلق فوق الزجاج ولم تبق الا صورة الاعين التى كانت تحدق في الباب وتهضم فكرة ان كلا منا يجب ان يسترجع انفاسه بهدوء ويجب ان ينتظر دوره الى ان يأتى صبي المقهى لكى يمرر نشافته على وجهه ويجب ان يفكر في اشيائه الاخرى الى ان يأتى دوره ... وجاء صبي المقهى بابتسامته الصفراء وقال انه آسف جدا لانه لا يملك الا مجهوده الخاص لكى يعيننا به واننا نبدو متفهمين لذلك جيدا .. وكلن كل منا ينظر الى الزجاج في كثير من الكآبة ويحس بارضية المقهى الرخامية باردة الى جد يمنع الافكار .. كنت اجد ان صوت صبي المقهى مزعج وسط كل ذلك السكون ولم يكن هناك من يفكر في اسكاته . وتذكرت كل تلك الاعين التى تكون فى ظلام المدينة في المنعطفات وعند الحواجز التى تفصل الاحياء واحسست بموءخرتى باردة جدا .

يكون اليوم هو اليوم الذي اخرج فيه مع تلك الفتاة التي يفصلها عني حاجز حينا والتي اقول لها احبك والتي تقول لي احبك والتي اقبلها والتي اريد ان انام معها فتقول ان امها لا تريدها ان تنام مع اي شخص قبل الزواج لذلك يجب ان نترك تلك الاشياء الى ما بعد. .ألتقي اليوم بتلك الفتاة التيتلتقي بي ونجلس في ذلك المقهي في ركن ما بعيدا عن الزجاج واكون اريد ان احدثها واكون قد استهلكت رصيدي من الكلمات الجميلة التي املكها واقول لها اني اريد ان تحدثني عن الاشياء التي سنفعلها عندما نتزوج . تقول انها تفضل ان تسمع اسطورتي احدثها عن جدي الذى يستمع الى اسطوانات البوب ويهز رأسه ويتحدث عن ذلك الفارس الذي سيعيد الى المدينة توازنها . تقول انها تفضل ان تسمع اسطورتي الصغيرة . احدثها عن جدى الذي يقضي الليل يفكر في الاشياء التى لم يفكر فيها من قبل وينتظر ذلك الفارس الذي يركب فرسا بيضاء ويرتدى جبة خضراء وبرنسا اخضر ويسألني هل تحدثت الاذاعة عنه ام انه ما زال لم يظهر .. تكون الفتاة التى الى جانبي بصوت رقيقتقول به انها ستصبح صغيرة من اجل اسطورتي التي سأحكيها لها ثم تكبر معها كما تكبر الاشياء داخل الاسطورة ثم نتزوج وننجب الاطفال كما يقع ذلك في الاسطورة وعندها اعرف الاشياء التي سنفعلها عندما نتزوج .. امسح الصدأ من فوق كلماتى واقول لها : « في مدينة ما ... فى بلد ما من العالم الثالث ... كان هناك مقهى وفي المقهى كانت جماعة وفي الجماعة كانت افكار وفي الافكار كانت كلمات تتحدث عن البطولة وعن « الهيبي » وعن الجنس وعن الماضي وعن الثورة .. »

وتضحك الطفلة التي تريد نفسها صغيرة من اجل اسطورة وتقول ان اسطورتى مثل كل الافلام التى تعرض على الشاشة والتي تقول ان الاسطورة تتواصل هكذا : » ... وفي تلك المدينة كان هناك حزب سياسي وكانت هناك شرطة وكانت الشرطة تحرس المدينة والمدينة تحرس الحزب السياسي والحزب

السياسي يحرس السلطان والسلطان يحرس الحواجز التي حوله .. وكان الناس بخير ما دام السلطان بخير مادام الحزب السياسي بخير ما دامت الشرطة بخير ... »

وتضحك الفتاة التي تريد نفسها صغيرة من اجل اسطورة وامسح انا نظاراتي وكلماتي وافكاري واقول لتلك الفتاة التى تنظر الي وتضحك : » ... في تلك المدينة كانت الشرطة وكان الحزب السياسي وكان السلطان .. وكانت كل تلك الاشياء في الجانب الاخر من الاسطورة لان جدى كان يرفض الحديث عنها كما يرفض كل الناس في تلك المدينة الحديث عن الاشياء التي تقع ليلا اثناء النهار .. »

وتكون الفتاة التي تجلس الى جانبي قد ازدادت التصاقا بي ويكون جسدها اليفا جدا الى جسدي واسألها عن الاشياء التي سنفعلها عندما نتزوج فتقول ان ذلك فى الجانب الاخر من وضعنا وانه يجب ان اقص عليها بقية الاسطورة لكي تكبر معها ولكي نتزوج ولكى نعرف الاشياء التى سنفعلها عندئذ .. واكون اريد ان اقول لها ان تلك المدينة كانت باحياء متعددة كما كان يحكي عنها جدي وان كل حي فيها كان يعيش زمنه الخاص وان ذلك كان يزرع الطمأنينة في افكار الناس لان المدينة لا يمكن ان تكون الا طمأنينة في افكار جدي عندما تكون احياء ملونة مقسمة مفصولة بحواجز ..
واقول للفتاة الدافئة جدا القريبة مني جدا اني احلم بان اسيح في الارض بدون جواز كما يفعل « الهيبي » فلماذا لا نتزوج سريعا ونرحل الى اقصى الدنيا . تقول الفتاة التى الى جانبي ان الزواج يأتي دائما في نهاية الاسطورة لذلك يجب ان اقص عليها بقية الاسطورة لكي تكبر معها . واقول لها : ... « كما تريد الاسطورة وكما تريدين انت وكما شاءت كلمات جدي وكما يمكن ان يحدث في مدينة باحياء متعددة يعيش فيها كل حي زمنه الخاص ، كبرت المدينة وكبرت الاحياء ـ كما تكبر الاشياء عبر الاسطورة بين ليلة وضحاها ـ وبدات تضغط على الحواجز التى تفصلها .. وكما يمكن ان يضغط الشيء على حاجزه وكما يمكن ان يضغط كل حي على زمنه عندما تتفاقم الاشياء داخله كان كل حي في المدينة يضغط على الاشياء حوله وكان كل يحاول ان يحافظ على حواجزه ولونه وهيكله وابعاده وزمنه ... وذات يوم ـ كما يقع ذلك فى الاسطورة وكما يمكن ان تكون الاشياء خاضعة للصدفة ـ انزلق الزمن بين الحواجز واختلطت الاشياء داخل المدينة وبقي كل يبحث عن اشيائه الخاصة وعن زمنه الخاص ... عند هذا الحد كان صوت جدي يتلاشى ويبقى ذلك الجد يحدق في الفراغ وينسى ان يتم فيه الاسطورة وعندما اسأله عن البقية يقول انه يجب ان يفكر في الاشياء التى لم يفكر فيها من قبل وعندما اسأله عن الشيء الذي يفكر فيه يقول : ... في يوم ما يأتى سيدي « عبد القادر » بفرسه الابيض وبجبته الخضراء وببرنسه الاخضر لكي يعيد الاشياء وراء حواجزها كما كانت من قبل .. لكي يعيد لكي حي زمنه الخاص ... ويسألني الم تتحدث الاذاعة في نشرة اخبارها عنه ؟ وعندما أهز راسي بالنفي يرسل نظره بعيدا ويبقى يفكر في الاشياء التى لم يفكر فيها من قبل .. »

وتصمت الفتاة التى تريد نفسها صغيرة من اجل اسطورتي وتبقى تحدق في شيء ما في وجهي وعندما أسألها عن الاشياء التى يمكن ان نقوم بها عندما نتزوج تبقى تحدق في شيء ما فى وجهي وتسألني لماذا افكر ان انطلق سائحا في الارض . اقول لها لاني اريد ابحث عن زمني الخاص . تزداد تلك الفتاة اقترابا مني وأسمعها تتنهد وتكون تفكر واسألها في ما تفكر فتقول في ذلك الزمن الذي يبحث عنه كل بطريقته الخاصة .. في تلك الاسطورة التى لا تنتهي بالزواج وبانجاب الصغار فى مدينة ما في بلد ما من العالم الثالث ... ثم تسألني عن الوقت وتنتفض مرتاعة لتقول ان أمها لا تسمح لها بان تبقى خارج حاجز حيهم بعد الوقت ... ويكون الزمن قد مر .. ويفصلنا الحاجز ..

كان جدي يستمع الى اسطوانة البوب التي وضعتها على « الفونوغراف » ويهز راسه ويفكر في شيء ما سألته ماذا يحدث عندما ـيختفى شخص ما من المدينة اثناء الليل ويتحاشى الاخرون الحديث عن ذلك . قال جدي : « ذلك من علامات ظهور سيدي « عبد القادر » .... » سألته لماذا كانت الحواجز كثيرة في هذه المدينة قال : « ... كانت المدينة باولياء كثيرين لذلك كانت في حاجة الى من يحميها واقتسم الاولياء ذلك لكل منهم قطاعه الخاص .. وعندما تداخلت الاشياء بين الحواجز قرر سيدي عبد القادر ان يركب فرسه ويبحث عن ذلك الزمن الضائع وعندما يعود تكون المدينة قد اكتسبت توازنها من جديد ..» . الم تخبر الاذاعة عن موعد عودته ؟؟ » . قلت له ان ذلك لم يقع بعد . سكت جدي وبقي يفكر في الاشياء التى لم يفكر فيها من قبل . سألت جدى هل فكر يوما ان ينطلق سائحا في الارض يبحث عن شيء ما يعرف أنه لن يجده الا في نهاية حياته . قال جدي ان ذلك لا يحدث عندما يعيش الانسان في مدينة باحياء متعددة وبحواجز متعددة وباولياء كثيرين يحرسونها اذ ان كل ما يمكن ان يبحث عنه الانسان هو ذلك الزمن الضائع الذى انطلق سيدى عبدالقادر يبحث عنه وسيأتي به في يوم

ما لكي تستعيد المدينة طمانينتها . وضعت اسطوانة اخرى . استمع جدي اليها وقال انهم عندما كانوا شبابا وعندما كانوا يقضون المساء عند ضريح ذلك الولي الذي يقع خارج المدينة كانوا ينقرون الدفوف ويبتهلون الى الله أن يعود سيدي « عبدالقادر » قبل ان تتداخل الاشياء كثيرا في هذه المدينة .

نكون جماعة ونلتقي ونكون في مقهى ونتحدث ونكون في مدينة ما تكون المدينة باحياء متعددة وتكون تلك المدينة في بلد ما من العالم الثالث وتكون احياؤها بازمنة مختلفة وبحواجز كثيرة ويتداخل يوحد الاشياء داخلها . نكون في المقهى ويكون الزجاج يفصلنا عن الاشياء داخلها . نكون في المقهى ويكون الزجاج يفصلنا عن الاشياء التى ننظر اليها من ورائه ويصادف ان يختفي احدنا فنسأل عنه صبي المقهى الذي يكون متأسفا جدا لانه لا يستطيع ان يدلنا على اي شيء ويقول جدي ان ذلك يعني ان اذاعته الخاصة قد انبأته ان سيدي«عبدالنادر» سيعود قريبا ويصمت جدي ويرتفع صوت الاسطوانة بموسيقى « البوب » ويحدق جدي في شيء بعيد ويبقى يحرك راسه في تثاقل واكون اعلم انه يفكر في الاشياء التي لم يفكر فيها من قبل .

التقي بالفتاة التي يفصلني عنها حاجز حينا وتكون تحبني كثيرا واكون احبها كثيرا ويكون ذلك في نفس المدينة التي يقبع فيها جدي طوال اليوم ممسكا مذياعه الصغير ينتظر ان تخبر الاذاعة عن عودة سيدي « عبدالقادر » وفي نفس المدينة التي فيها امها التي لا تريدها ان تنام مع اي شخص قبل الزواج وفي نفس المدينة التي فيها المقهى الذى يقع داخل الزجاج ويكون اليوم هو اليوم الذي اخرج فيه مع تلك الفتاة ونخرج من تلك الاحياء من تلك الحواجز من تلك المدينة لنجد انفسنا عند عتبة ضريح ذلك الولي الذي يشرف على المدينة . اسأل الفتاة عن الاشياء التي سنفعلها بعد الزواج . تنظر الي وتضحك وتقول انها ستصفر من اجل اسطورة حكيها لها لكي تكبر معها احدثها كيف نكون جماعة وكيف نكون في مقهى وكيف يختفي الاشخاص في ليل المدينة وكيف يتحاشى الاخرون الحديث عن ذلك كما كانت الامور تقع في عهد جدي . تقول الفتاة انها تحبني كثيرا وانه لا يجب ان اختفي ذات يوم لانها لا تستطيع ان تصمت طويلا . احدثها عن « الهيبي » وعن العالم الواسع الذي يمكن ان يسيح فيه الانسان وعن كل الحواجز التي يمكن ان يحطمها داخل نفسه وفي افكاره . بدات تحدثني كيف نظرت اليها امها بتعجب عندما حدثتها عن اشياء مثل هذه وقالت لها انها لا تفهم لماذا يكون هناك من يفكر انه لا يستطيع ان يقضي كامل حياته في حي مثل حيهم في مدينة مثل مدينتنا لكي يكبر ثم يتزوج ثم ينجب الصغار ثم يموت كما تقع مثل هذه الاشياء في اي مكان اخر .

قلت للفتاة التي بجانبي انه قد يبتلعني ليل المدينة وقد احطم حواجزها واسيح في الارض وقد انتحر فنظرت الي بعينين كبيرتين وبدات تبكي وحدثتها عن الاشياء التي تتواصل في ذلك المقهى وراء الزجاج حيث نتحدث عن كل الاشياء ونتحاشى الحديث عن ذلك الشخص الذى كان يفكر في تكوين حزب سياسي والذي نعرف انه اختفى لكي لا يعود مرة اخرى ويحدثنا عن تلك الاشياء . وكانت الفتاة مازالت تبكي وكنت افكر ان ذلك يساعدها كثيرا على التفكير في اشيائها التي لم تفكر فيها من قبل .. وحاولت ان اسلخ الكثير من الكآبة من صوتي لكي اقول لها انى كنت افكر ان اعيد بناء العالم من جديد وكنت افكر اني سأعيد الى هذه المدينة توازنها وكنت احلم بتحطيم الحواجز التى تفصل الاحياء فى هذه المدينة ولكن اجد الان ان الاشياء التى لم افكر فيها من قبل هي اكثر من تلك التى فكرت فيها واجد اني كنت اتنفس دائما امام ذلك الزجاج الذي تنعكس عليه صورتي ولم اكن في يوم ما انتظر ان تخبر الاذاعة عن عودة الفارس الاخضر ولم اكن انتظر ان اكون حزبا سياسيا ولم اكن قد تفطنت الى كل تلك الحواجز التى تفصلني عن الاخرين .. وكان الزمن يمر ...

نكون جماعة ونلتقي في ذلك المقهى من تلك المدينة وتكون الاشياء التى تصل بنا الى التحديق في الزجاج ويكون كل الذين قالوا انهم يفكرون في تكوين حزب سياسي قد اختفوا واكون افكر ان جدي سينتظر ان تخبر الاذاعة عن عودة الفارس الاخضر واكون افكر ان تلك الفتاة ستبقى تنتظر أن نلتقي في اليوم الذى نلتقي فيه وستفكر عندها في اشياء لم تفكر فيها من قبل واكون افكر انه في المرة القادمة سيكون هناك من يقول انه يفكر في تكوين حزب سياسي .. كان الاخرون ينظرون الى الزجاج وكنت انظر الى الزجاج وكان الصمت مرحلة ما من زمننا .

وجدت فمي ينفتح، وجدت لساني يتحرك. وجدت كلماتي تقول : « ساكون حزبا سياسيا ..!». نظر الي الاخرون بدات افواههم تتحرك وايديهم تتحرك ..

يحدث ذلك واكتشف انه هناك شيء اسمه الزمن .. وكان يتحرك ايضا .

باريس

القول بعروة الصعاليك

حميد الكعبي



وانى امرؤ عافي انائي شركة
وانت امرؤ عافى اناؤك واحد
أفرق جسمي في جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء ، والماء بارد
ـ عروة بن الورد ـ

(١)

السكاكين فرقت الان ظلك
ويقول الرواة بأن سوف ينتحر الموج فوق الصخور ، غدا .
انت في القاع ان هدأ الموج تعلم بان سيثور .
واذا ضج تفهم ان سوف لن يهدأ الموج طوعا .

(٢)

مرّ بي في شحوب المساء خيالك ، اشعرني بالهزيمه
حيث ألفى غلاما يعد بحبات رمل البحيرة سوءات عروه .
« لست صاحب ثروه .
ثروتي أن أميز بين القتال الشريف وبين الجريمة . »

(٣)

الطيور المسائية المتعبه
تتدحرج في الجو . (ان الطيور تغني مع الفجر ،لكنها وقت ترتفع الشمس تنسى الغناء ؛
تتشاجر في الجو صخابة ، ثم ترجع متعبة ذاوبه
اذ يجن المساء .)

(٤)

وتدور براسي الدوائر : كنت تفرق جسمك .
وتدور الدوائر : كنت تسل رغيف الصعاليك من ثروات القوافل .

وتدور : اذن ؛ قل لهذا الفلام الذي لا يميز بين القتال الشريف وبين الجريمة ؛ هل انت قاتل ؟

(٥)

كان ماء البحيرة يحتز اطرافه الرمل . « انك لست وحيدا » تقول . ويختلج العشب والضفتان ، وتنجر للقاع ميتا وحنجرة حية فوق ماء البحيره .

(٦)

ـ انني استرد الذي سلبته القوافل مني .
ـ كاذب . انت تسلب مالا لغيرك ، لا بالعدالة ، بل بالتجني .
ـ انا صنو العدالة .
ـ انت عدو العدالة .
ـ لست مصاص زاد الفقير .
ـ انت اسوأ مصاص دم .
ـ كيف ؟!
ـ انك قاتل .
ـ او تحسبني ساصدق ان المعكر صفو القوافل عادل !؟
ـ أو تحسب اني اصدق ان دماء القتيل ؛

هي حق لمن جاع ـ أمثال عروة او غيره ـ !؟ مستحيل .

(٧)

الجرائد ذابلة فوق رف صفير تداعى .
والكتاب الذي يتحدث عن (عروة الذوبان) ، وهمي .
والضياء ، وصوت المطر .
تتملص بعض السطور من الزمن المتراجع ، تصبح حاضرة ، ثم تمسي غدا .

[وارى (عروة الذوبان) يقود جماهيره في الشوارع ، تحت انهمار المطر .
كان ماء البحيرة ينداح ، يترك جيشا .
يتهدج صوت الرواة ، ويتكيء السامرون على الذكريات ، وينفجر الرعد فوق الشجر ،
فيجن المطر .

و « جنود المظلات » يصرخ مدياع جاري ، وتختلط الكلمات ، « نريد سلاحا . » ، « اترثى البراكين !؟ » ، « غسان مات » ، سيول من الناس تندلق ، الحرب والسلم يقرأ كل قصيدته ، « الثأر للمئة الابرياء . » ، الحوانيت ، والماء ، والناس ، والشارع المتبلل ...]

دعك جفني ، فينتفض الحلم ، ثم يسود الهدوء .
فارى (عروة الذوبان) على الرف ، تبسم عيناه ناطقتين بصمت المقاتل .

(٨)

لست قاتل .
عروة الذوبان تسل بوجهك قافلة من سيوف مشربة بالدماء البريئه .

لقمة الزاد ، ان لم تصبغث منا دماء الطوى ، لا تكوني مريئه .

أيهذي الطيور التي هربتها الظهيرة ، عودي مساء لشمس دفينه

في قلوب الصعاليك نضاحة بالمودة والخير ، لا بالضغينه .

فالاكف التي اوغل السم فيها
لم تزل ، في البلاد السليبة ، تجمع شعر الصعالك ؛
تدفنه في الثغور السحيقه
حين يستل سيف الحقيقه .

واذا الرجل الحر ألقى بجمهوره الحر ، في جانب الدرب ، شعرا قتلوه وقالوا : « تأبط شرا » .

(٩)

انت يا عروة الذوبان عظيم وعادل .
غير ان التفرد في البحث عن كنز هارون يا سيد لطخة في جبين المقاتل* .

---

* يسر مجلة الاقلام أن تقدم السيد حيدر الكعبي كفاءة شابة وموهبة جديدة تشق طريقها في عالم الادب والفن .. وقد فازت قصيدته التي ننشرها في هذا العدد بالجائزة الاولى في المباراة التي نظمتها وزارة التربية بين طلبة وطالبات المدارس الاعدادية والثانوية لعام ١٩٧٣